آل الاسعد - الاسعديون تحدّروا من محمد بن هزاع الوائلي القحطاني وتتصل جذوره بقبيلة تغلب - دخلوا بلاد جبل عامل على عهد صلاح الدين وكان أميرها بشارة بن مقبل - انتفضوا على المعنيين وانفصلوا عن ولاية الشام وحكموا أنفسهم بقيادة احمد بن علي الصغير

اعداد : انطون شعبان – 01 –جريدة الديار – بدءا من تاريخ 6 تشرين الثاني 2013 – 28 حلقة

ينتسب آل الاسعد، او «علي الصغير»، الى محمد بن هزاع الوائلي القحطاني، من رؤساء عشيرة عنزة، المتحدّر من بني تغلب القبيلة الوائلية المعروفة.

وقد جاء ابن هزاع، «في عهد صلاح الدين الايوبي (في القرن الثالث عشر)، من بادية نجد على رأس جيش من اعراب بوادي قبائله الى بلاد جبل عامل في الديار الشامية، فدخلها والامير عليها يومئذ بشارة بن مقبل القحطاني، وهي تعرف من عهده حتى اليوم ببلاد بشاره، فساق عليه حربا، انتهت بانتصاره عليه، واستولى ابن هزاع على البلاد وحكمها، واقترن بابنة بشارة، واجرى عليه معاشا يقوم بأوده الى ان توفي. وبقي محمد هذا، اميرا على بلاد بشاره مدّة حياته. وبعد وفاته تلقاها ابناؤه واحفاده.«

اما علي الصغير الذي اعطى العائلة شهرتها، وتكنّت باسمه على مرّ الايام، فهو علي بن حسين بن احمد بن نصار الوائلي الذي يروى انه، اثر وفاة والده، جاء اخوة امه وقومها بني سالم من افخاذ عنزة، فحملوها الى ديارهم في اطراف بادية الشام، «فولدت غلاما سمّته عليا باسم اخيها الغائب في ديار اليمن...» وقد عرف الغلام بالصغير تمييزا لاسمه عن اسم خاله، فشبّ علي الصغير «وامتاز بالنجابة عن اقرانه، وقد بلغ الخامسة عشرة اصبح يحلّ المشكلات بين القبائل.«..

ويعتقد ان حكم ابناء علي الصغير في جبل عامل، بدأ في عهد دولة المماليك المصرية البرجية، التي امتدّ حكمها ما بين العام 1382 والعام 1517، حيث استعاد علي الصغير الحكم من آل شكر في معركة قانا وعيناتا. ثم استعاد ثانية، على ما روي، الشيخ حسين الصغير حكم البلاد من آل سودون.

ويرجح ان علي الصغير الوائلي السالمي «ابو الزعماء» الجدّ الاول لآل الاسعد، قد عاش ما قبل العام 1517.

وبدأ يتردّد تاريخياً اسم «بيت علي الصغير»، منذ العام 1612، حيث «عزم الامير فخر الدين المعني على الفرار الى البادية فجاءه الخبر بأن الحافظ احمد وجه عسكرا صحبة الامير احمد شهاب، وفروخ بيك واحمد بن طربيه، الى جسر المجامع ليمنعوه، فعند ذلك عزم الامير على قتالهم، ورجع وسار الى قلعة الشقيف، وعند وصوله، حضر اليه اناس واعلموه ان اولاد علي الصغير سلبوهم في الطريق، فبالحال توجه وباغتهم في قرية الكوثرية، فنهبها، ورجع الى القلعة.«

ففي تلك الفترة، على ما يبدو عمد ابناء «الصغير» الى التشويش على الرعية، وممارسة اعمال التشليح ليضطر الامير المعني الى توزيع قواه. وهو تمكن من مهاجمة بلدتهم الكوثرية، اذ كانوا غائبين عنها لمشاركتهم في اجتماع مشايخ المتاولة الذي تمّ فيه تولية الزعامة في ذلك الحين للحاج علي واخيه ناصر الدين ولدي منكر.

وفي العام 1666، انتفض العامليون على الامارة المعنية... «وطردوا عمال ارسلان باشا، وفتكوا فيهم، وفازوا على جنود والي صيدا العثماني، وجنود آل معن، في موقعتي النبطية ووادي الكفور، فاستقلوا عن الامارة المعنية وانفصلوا عن ولاية الشام، وحكموا انفسهم بأنفسهم بقيادة شيخ مشايخهم احمد بن علي الصغير.«

وفي اواخر القرن السابع عشر، بدأت اولى محاولات التمرّد والاستقلال عن السلطنة العثمانية، فقبض الشيخ مشرف بن نصار من آل علي الصغير على بعض رجال الدولة وقتلهم.

وبدءا من العام 1749 شرع العامليون يرمّمون قلاعهم، ويثبتون حكمهم الذاتي بزعامة شيخ المشايخ ناصيف النصار من آل علي الصغير المقيم في قلعة تبنين، امنع مواقع جبل عامل، ومركز الزعامة...

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر، تحالف الزعماء العامليون مع قوى محلية تمرّدت على السلطنة العثمانية في بلاد الشام الجنوبية ومصر (ظاهر العمر وعلي بك الكبير)، فانزلوا معا هزائم مذلّة بقوات كل من الوالي العثماني في دمشق، وحليفه امير جبل الدروز يوسف الشهابي.«

وقد برز في تلك المرحلة (1749 - 1780) الشيخ ناصيف النصار الذي راح يحاول توحيد كلمة العامليين منذ العام 1750 من جهة، واقامة التحالفات في ما بينهم وبين الفلسطينيين والشوفيين والبعلبكيين من جهة اخرى، ليجعل من اتحاد هؤلاء «سورا منيعا، لا يجد الاتراك فيه منفذا يدخلون منه لتفرقتهم، ثم الاستعانة ببعضهم على الآخر.«

وهكذا، فبعد ان سجل سيد قلعة تبنين القوي ناصيف النصار انتصارات عدة على جيرانه، بدأ بابرام معاهدات الصلح الودية مع والي عكا الشيخ ظاهر العمر، وامراء الشوف الشهابيين... وفي اثر ذلك، سجل الشيخ ناصيف وحليفه

ظاهر العمر اكثر من نصر على والي الشام العثماني، «فجعلا معنويات السلطنة العثمانية تضعف امام رعاياها». ثم هزم ناصيف بالتعاون مع ظاهر امير جبل الدروز يوسف الشهابي، الذي اوكل اليه العثمانيون امر «تأديب متمرّدي جبل عامل». فبعد واقعة كفر رمّان او النبطية الثانية عام 1771، التي اسفرت عن انتصار العامليين وانهزام الامير الشهابي، سجل الشيخ ناصيف وحليفه الفلسطيني ظاهر، بالتعاون مع علي بك حاكم مصر، نصرا ساحقا على عثمان باشا وخليل باشا واليي الشام والقدس العثمانيين، وذلك في معركة فاصلة جرت في سهل الغازية عام 1772. وفي اثر هذه المعركة، واستنجاد الامير يوسف بالشيخ ناصيف الذي «قاد فرسانه بنفسه» في واقعة القرعون التي اسفرت عن انتصار الامير الشهابي على الباشا العثماني عثمان، عقد الشيخ العاملي ناصيف مع امير الجبل الشهابي معاهدة ودّيّة.

اعداد : انطوان شعبان –02
إنتفضوا على المعنيين عام 6661 وانفصلوا عن ولاية الشام وحكموا أنفسهم بقيادة أحمد بن علي الصغير
اعداد : انطون شعبان
وعن «الحكومة الوائلية في دورها الاول» يقول محمد جابر آل صفا، في «تاريخ جبل عامل»: «وبعد، فان المفهوم من اقوال المؤرخين، ابن فتحون وابن شداد، والقلقشندي، والامير حيدر الشهابي وغيرهم، ان دخول نظام الحكم الاقطاعي الى جبل عامل كان في القرن الثالث عشر للميلاد (السابع للهجرة.«(
وحول الاقوال المتضاربة في هوية بشارة الذي تعود اليه تسمية جبل عامل ببلاد بشارة، يقول المؤرخ جابر:
«والمعوّل عليه والاقرب الى الصحة، انه الامير حسام الدين بشاره بن اسد الدين بن مهلهل بن سليمان بن احمد بن سلامة العاملي، هكذا ساق نسبه ابن فتحون في تاريخه. وقال العلامة السيد محسن الامين الحسيني، ولم يذكر المصدر، انه من رهط عاملة بن سبأ. وهذا الامير كما يقول ابن فتحون هو من امراء الدولة الصلاحية الكردية، حضر مع الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب فتح حصن هونين، واقطعه الملك خط باياس. وورد ذكره في تاريخ ابن شداد عند حلف اليمين للملك الافضل بن صلاح الدين في عكا بعد وفاة ابيه، وظهر من كلامه انه كان من اكابر امراء الدولة. ومما تتناقله الالسن في جبل عامل، ونصّ عليه بعض الباحثين ان قرية زبقين، من اعمال صور، كانت مركز امارته، حيث الآثار الفخمة فيها تدل على ذلك.«
ويضيف محمد جابر في معرض حديثه عن دخول نظام الحكم الاقطاعي الى جبل عامل: «على اننا لم نقف من اخبار حكامه في ذلك العصر على غير ما ذكرناه آنفا بايجاز عن الامير حسام الدين بشارة بن اسد الدين العاملي. ومن هذا الامير انتقلت امارة البلاد الى آل وائل. وكانت تنازعهم الحكومة اسرتان هما آل سودون وآل شكر.
وبعد ان اورد جابر ما ذكره صاحب «العقد المنضد، من ان الجد الاول لآل علي الصغير هو محمد بن هزاع الذي استولى على بلاد عاملة، بعد ان انتصر على الامير بشارة بن مقبل القحطاني، على عهد السلطان صلاح الدين الايوبي، قال: «وعلى هذا تكون حكومة آل وائل التي اطلق عليها في الدّور الثاني اسم حكومة آل علي الصّغير، بدأت في الدّور الاوّل من تاريخ جبل عامل، اي قبل دخول سوريا تحت الرّاية التركية العثمانية.«
ورأى المؤرخ جابر انه «ليس ببعيد ان يكون بشارة ابن مقبل، من اجداد بشارة بن اسد الدّين، وسقط اسمه من سلسلة النسب بإغفال النسّاخ«...
{الامير علي الصّغير{
وعن حكومة آل شكر التي اسقطها علي الصّغير، قال محمّد جابر: «السادة آل شكر، اسرة «حسنيّة، يتصل نسبها بالإمام الثاني الحسن ابن علي. نشأت في قرية عيناتا في جنوبي جبل عامل... وهي احدى الاسر التي حكمت بلاد بشارة الجنوبية ردحا من الزّمن. ونازعت آل نصّار الوائليين الحكم في عهد الشيخ حسين بن احمد النصار الوائلي، وهو والد الشيخ علي الصّغير الجدّ الثاني لهذه الاسرة، واليه ينتهي عمود نسبها في العهد الاخير، ويطلق اسمه على سائر فروعها. وملخص اقوال الرواة والمؤرخين العامليين: ان الشكريين، وكانوا ذوي صولة ونفوذ، يتحفّزون للايقاع بآل نصّار الوائليين اجداد الصّغيريين، وانتزاع الحكم من ايديهم، حتى اذا سنحت لهم الفرصة، وكثر انصارهم، وآنسوا الضّعف بالحكومة الوائلية، شهروا عليها حربا عوانا، اسفرت عن فوز آل شكر. فقتلوا زعيم آل نصّار الاكبر الشيخ حسين بن احمد النصار، واجهزوا على سائر افراد اسرته شيوخا وفتيانا. ولم يسلم منهم الاّ امرأة حامل هي زوجة الشيخ حسين نفسه، وكانت من بني عمّه بني سالم، العشيرة المعروفة بالسّوالمة احد فروع قبائل عنزة والرولة والشّعلان«...
وتابع جابر سرد ملخّص اقوال الرواة حول استرجاع علي الصّغير لإمارة اجداده من آل شكر، وختم بقوله: «وبعد وفاة علي الصّغير تعقّب ولده الشيخ حسين بن علي، من بقي من آل شكر، فلم تقم لهم بعدها قائمة. وكانت مدّة حكمهم عشرين سنة. وقد بقي من سلالتهم الى اليوم، جماعة يسكنون قرى الخيام والنبطية الصغرى وجبشيت وكفررمان والرّيحان وغيرها.«
واوجز محمد جابر ايضا رواية مؤرّخ عاملي في مخطوطة له في تاريخ آل شكر، اعتبرها جابر اكثر ايضاحا مما تقدّم، وفيها: «لما تغلّب آل شكر على آل نصّار في عهد الشيخ حسين بن احمد، وكانت حكومته ضعيفة، ادركها الوهن، ارتكب الشكريّون كثيرا من الفظائع.
فكانوا يبقرون بطن الحامل، ويقتلون جنينها. ولم يسلم من بني نصّار الاّ امرأة حامل، فرّت مع ابيها الى جبال بني حارثة وقيل لبادية الشّام، بادية السّوالمة، ووضعت هناك حملها طفلا اسمته عليّا، وشبّ في تلك الجهات. وقد عاش بنو شكر بالبلاد، وكثر جورهم، ودام حكمهم عشرين سنة.
وكانوا يرجعون لرئيسين منهم، الاول: السيّد محمد شكر، ومقرّه في قرية قانا. والثاني: السيّد حسين، ومقرّه في قرية عيناتا.
وكان بعض اعيان البلاد على اتصال بوريث آل نصّار، علي الصّغير، فسار اليه فريق منهم، واتوا به لـ الديار. وقد تجنّد

كثيرون تحت رايته، وشبّت نار الحرب بينه وبين الشكريين، فدارت الدائرة عليهم. ويعود الفضل بإحرازه النّصر لرجلين من وجهاء البلاد عضداه وشدّا ازره، يدعى الاول: ابن دمشق من اهل قرية طير دبا، قرية شرقي صور. والثاني: من ياطر بالقرب من تبنين واسمه ابن عزقول. ولم يزل من سلالة الثاني رجل يقيم اليوم في قرية الغندورية.«

وفي الرواية ايضا: «والمعركة الاولى حصلت في قانا، حيث هاجمها الصّغيري بخمسمائة فارس يتقدّمهم ابن عزقول، فأحاطت بدار الشكري، وكان عزقول قد تواطأ مع خادمته لهم ان ترفع لهم قنديلا مضيئا ترسله الى اربع جهات، اشارة الى ان الشكري آوى الى فراشه. ولمّا رأى المرابطون ضوء قنديل يرسل اشعته ذات اليمين وذات الشمال. هجموا على الدّار فقتلوا الحامية واضرموا فيها النار وحاول الشكري الفرار فقبض عليه ابن عزقول وذبحه بيده. وكذا صنعوا مع السيد حسين الشكري وانصاره في عيناتا، حيث افنوهم عن آخرهم، وقتل السيّد حسين. وبهما انقرضت حكومة الشكريين، بعد ان اذاقت البلاد الامرّين.«

ونقلا عن مؤرّخ آخر، يتابع جابر: «ان السيّد حسين الشكري تمكّن من النجاة، وفرّ منهزما الى حاصبيا ملتجئا للأمراء من آل شهاب، فحموه واعطعوه قرية في الجولان تسمّى سكيك. وكتبوا للشيّخ الصغير يستشفعون به ويطلبون العفو عنه، فمانعت والدته بذلك حذرا من غدرهم. واتّخذ علي الصّغير المزرعة التي دعيت فيما بعد مزرعة مشرف نسبة لأحد احفاده مقرّا له.

ولمّا توفي خلفه ولده الشيخ حسين، وكان قاسيا شديدا على من بقي من آل شكر وانصارهم، فذاقت البلاد الاهوال في عهده، ولم يرأف بالاطفال فقتلهم شرّ قتلة حتى ضجّ الناس من فتكه وشدّته. فتآمروا على قتله، فاحتال عليهم وجلبهم الى المزرعة وذبحهم واحدا بعد آخر، حتى اتى على آخرهم. وكان عدد من قتلهم مئة وثمانين رجلا.«

{الشيخ حسين الصّغير{

وعن اسرة سودون التي روي عن حكمها في جبل عامل قبل «حكومة ابناء علي الصهير» يقول جابر آل صفا: «في بعض المخطوطات التي عثرنا عليها بين مبعثرات اوراق مؤرخي جبل عامل، ان اسرة يطلق عليها اسم «سودون» او ابو سودون، حكمت جبل عامل، او القسم الجنوبي منه، في عهد دولة المماليك، المصرية. وفي تاريخ دولة المماليك المصرية البرجية: ان «سودون»، كان نائب الشّام في سنة 1478م ـ 883هـ، من قبل تلك الدّولة... ولا يبعد ان يكون ذلك النّائب قد ولّى بعض اقاربه حكومة هذه البلاد (عاملة)، وكانت من اعماله. وقد ورد اسم سودون في تاريخ جودت باشا، فقال ما ملخّصه: لما ظفر سليم الاول ملك العثمانيين بالسّلطان قانصو الغوري بعد معركة مرج دابق، قرب حلب في سنة 1715م، وسقط الغوري قتيلا، وسقطت سوريا بيد الفاتح، وخضعت له مصر بعد مقتل «طومان باي»، واستأصل المماليك الجراكسة، سأل عمّا اذا كان بقي منهم احد يذكر، فذكروا له اميرا منهم يدعى سودون بك، من اهل التقوى، اختار العزلة في بيته وعكف على العبادة، وله ولدان من اهل الشجاعة والبأس، احدهما يدعى ذا الفقار والثاني قاسم. وزار السلطان سليم هذا الامير في بيته وشهد اعتكافه وصلاحه وورعه، فأكرمه واحسن اليه، واعجب ببسالة ولديه، فأنعم عليهما بإقتطاع بعض الاراضي، وجعل كلاّ منهما رئيسا لفرقة من الجند.«

اعداد : انطوان شعبان –06

يقول العلاّمة السيد محسن الامين في «خطط جبل عامل»، المطبوع عام 1691، ان صلاح الدين فتح قلعة تبنين عام 1186، وبقيت في يده الى ان توفي عام 1192، ثم في يد ولده الافضل الى العام 1195، ثم في يد عمه العادل ابي بكر بن ايوب، وفي العام 1197، حاصرها الفرنج ثم عادوا عنها، وتعاقبت عليها ايدي التعيمر والتدمير، وكانت خراباً في عهد الشيخ ناصيف بن نصار (من آل علي الصغير) شيخ مشايخ جبل عامل نحو العام 1688، فعمّرها كما كانت عليه في هذا العصر، كما عمّر غيره من مشايخ جبل عامل سائر القلاع، وعمّر ابن عمه عباس المحمد صور وكانت خراباً. وسكن ناصيف قلعة تبنين هو واخوه محمود المعروف بأبي حمد. وفيها برج من جهة الغرب، ينسب الى ابي حمد الى اليوم، لانه هو الذي عمره، وهو البناء الغربي الذي في جانبيه الشمالي والجنوبي تدوير اقل من باقي الابراج، ثم زاد في تعمير القلعة حمد البك ابن ابي حمد، ثم زاد في بنائها علي بك الاسعد لما ولي بعد حمد البك وكان معه كالوزير محمد بك ابن اسعد الخليل، فبنى علي بك في اعالي القلعة من جهة الغرب دوراً شاهقة واواوين بديعة على يد المعمار الحاج حميدي الصفدي باني جامع بنت جبيل.

ويضيف العلامة الامين: «وقد رأيت تلك الدور وصعدت الى اعلاها، فكان لها منظر رائع، ثم آل أمرها الى الخراب..

ونقل مصطفى بك القنواتي الدمشقي قائمقام صور جملة من أعمدة الرخام التي فيها الى سراي الحكومة في صور، حتى انه نقل بعض احجار الجامع وذلك في عصرنا. وبنى علي بك الاسعد فيها حماماً رأيته عامراً، وتوفي عند اتمامه فلم يدخله. وكان فيها جامع معظم، لا ادري اهو من بناء ناصيف او غيره؟ وبنى علي بك فيها ايضاً دوراً جميلة من جهة الشمال لحسين بك ابن سلمان بك، حين جاء مغاضباً لأخيه تامر بك حاكم بنت جبيل، دخلتها ورأيتها في زمن الصبا، وكان على سقوفها اشعار وتواريخ بخطوط جميلة وعلى جدرانها وسقوفها نقوش بديعة، وقد هدمت بعد الاحتلال الفرنسي، واخذت انقاضها». ويتابع الامين: «ورأيت في القلعة مكان مطبخ علي بك، ولا يشبهه الا مطابخ الملوك، واماكن مواقده تسع قدوراً تكفي جيشاً عرمرماً. وبقي علي بك في هذه القلعة الى العام 4681، ثم قبض عليه وارسل الى دمشق، فتوفي فيها ودفن بجوار الضريح المنسوب الى السيدة زينب في قرية راوية، ثم عينت فيها الحكومة العثمانية مديراً، واستمرت كذلك الى اول الاحتلال الفرنسي، فخرب ما فيها من البناء، ولم يبق فيها سوى العقود والابراج التي لا يمكن تخريبها، واخذ الناس انقاضها من حجارة وغيرها، وعادت الى شبه حالتها الأولى من الخراب وهجرت..

قلعة هونين: وهي قديمة العهد، في بلدة هونين التي ذكرها ابن جبير في رحلته الشهيرة، وكانت احدى قواعد الحكم في جبل عامل، ثم صارت من عمل مرجعيون، والحقت بعد الانتداب الفرنسي عام 1918 بفلسطين المحتلة.

وقد تمركز بقلعة هونين بعض ملوك الصليبيين ولها ذكر في الفتوح والحروب الصليبية، وحولها خندق جلّه منحوت في الصخر. ومرّ عن صبح الأعشى انها بنيت بعد الخمسمئة هجرية (1100م)، قال: وجعل العثماني في تاريخ صفد قلعة هونين من عمل الشقيف.

وقد جدد تعمير قلعة هونين حكام بلاد عاملة من امراء الشيعة، وسكنها من العشائر آل الصغير قبلان الحسن، وذلك في عهد ناصيف النصار، ولهؤلاء فيها آثار وعمارات محكمة، منها الجامع الباقية منارته وبعض حيطانه الى اليوم، وقد كتب عليه:

ومسجد فاز ببنيانه --- ذو الفضل قبلان حليف الندى

كيف وقد قال لنا جعفر --- والقول حق من بنى مسجدا

مذ أمّه الناس وصلوا به --- أرخت خرّوا ركعا سجدا (1166هـ) ـ 1752م

وقد كتب على مأذنة الجامع: «بني باشارة قبلان الحسن (من آل علي الصغير)، سنة 1187هـ ـ 1772م.«

)القلاع والحصون(

قلعة دوبيه: يعتقد انها من بناء الصليبيين أيضاً، وتقع على مقربة من شقراء، واسمها محرّف من «دوبو» او «دوبي» من اسماء الاعلام الشخصية في اللغة الفرنسية، ويرجح انها اقيمت على انقاض بناء روماني، بدليل ما يوجد حولها من المدافن الشبيهة بالمدافن الرومانية (أحدها منقور في الصخر). ويعتقد ان بناءها متأخر عن رحلة ابن جبير والا لم يهمل ذكرها، وقد مر وهو ذاهب من هونين الى تبنين بقربها في وادي الاصطبل، وهي في مكان عال.

قلعة مارون: في ساحل صور، وهي اليوم خراب، وفيها بيوت مسكونة وحواصل مياه كثيرة. بناها امراء جبل عامل سنة 1170هـ (1756م)، وجدد بناءها الشيخ عباس العلي، وكان على عتبة بابها الأبيات التالية:

عوذوها ان فيها -- للعدى داء مغيظا

جنة والنار فيها -- تحرق الفظ الغليظا

شادها عباس حصناً -- للعدى زادت حظوظا

فهي دار الخلد أرخ -- وكفى الله حفيظا

ومن قلاع جبل عامل ايضاً:
قلعة ميس او قلعة ابي الحسن، القائمة على قمة جبل بين الشهابية المسماة سابقاً «طير زبنا»، وبين «دير كيفا»، ويقول العلامة الامين انه رآها، وهي مزرب للماعز وانه يظن انها قلعة ابي الحسن (وهو ابو الحسن بن نزار بن الحاكم بأمر الله العبيدي، صاحب الدعوة الاسماعيلية) ويعتقد انها بنيت عام 3801م، وقلعة شقيف تيرون، وهي حصن بالقرب من صور، في الجبل المطل على بيروت وصيدا، وقلعة القط في ارض مجدل سلم، وقلعة شمع، وهي قلعة كبيرة، جددها او بناها حكام آل علي الصغير سنة 1063هـ ـ 1749م، وهي الآن خراب، تقع في قرية شمع، بين صور والناقورة، وهي قريبة من البحر.
في جبل عامل ايضاً، حصون قامت في اكثر المناطق التي سكنها حكام البلاد، كشحور مثلا، التي كانت موطن آل علي الصغير وآل الزين، فان القبو الكبير المعروف بالقبو التحتاني، كان حصناً، ويدل على ذلك الرمايات التي فيه، وكذلك الحصن الموجود في تبنين الذي بناه علي بك الاسعد، وهناك ايضاً برج قلاوية..
وبعد القاء بعض الضوء على جبل عامل، وأهم القلاع والحصون التي عززت حكم امرائه، نعود لسيرة ال علي الصغير الوائلي السالمي العاملي «ابو الزعماء»، الجد الاول لآل الأسعد الذي ان صح انه هو بنفسه قاد موقعة عيناتا، يكون مرجحاً انه عاش في الفترة التي سبقت العام 1516، او يكون ابناؤه او احفاده هم ابطال الوقعة المذكورة في وقت لاحق. وذلك ما ذهب اليه المؤرخ العالمي الركيني، اذ قال: «كان ابتداء حكم بيت علي الصغير من يوم وقعة عيناتا سنة 1059هـ (1649م.«(
)آل علي الصغير في مطلع القرن السابع عشر(
وما يرجّح الاعتقاد في ان موقعة عيناتا بقيادة علي الصغير، جرت ما قبل العام 1516، هو الوقائع التاريخية التي جرت منذ مطلع القرن السابع عشر، ففي «الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان»، يحدّث الأمير حيدر احمد الشهابي، انه «في سنة 1022هـ ـ 1613م، عندما عزم الامير فخر الدين المعني على الفرار الى البادية، جاءه الخبر بأن الحافظ احمد، وجّه عسكراً صحبة الامير احمد شهاب، وفروخ بيك، واحمد بن طربيه الى جسر المجامع ليمنعوه، فعند ذلك عزم الامير على قتالهم، ورجع وسار الى قلعة الشقيف، وعند وصوله، حضر اليه أناس وأعلموه، ان اولاد علي الصغير سلبوهم في الطريق فبالحال توجه وباغتهم في قرية الكوثرية، فنهبها ورجع الى القلعة.«
وفي تلك الفترة على ما يبدو، فان العامليين، اغتنموا فرصة ضعف الامير فخر الدين، فاجتمعوا في بلاد بشارة الخارجة عن سلطة المعنيين، وزعّموا ابناء منكر، واستعدوا لاستقبال الاحداث الجديدة، بعد فرار الامير الى البادية.
هذا ما ذكره الشيخ محمد تقي الفقيه في «جبل عامل في التاريخ»، مستنداً الى الصفدي، الذي أورد ان اولاد علي الصغير، شرعوا يشوشون على الرعية، ويمارسون اعمال التشليح، ليضطر الأمير الى توزيع قواه، فهاجمهم في بلدتهم الكوثرية، فلم يجدهم لأنهم كانوا غائبين عنها لمشاركتهم في اجتماع مشايخ المتاولة، الذي تم فيه تولية الزعامة للحاج علي وأخيه ناصر الدين ولدي منكر، فنهب الامير المعني جميع ارزاقهم في الكوثرية، ثم عاد الى خيامه تحت قلعة الشقيف.
)النزوح الى بعلبك(
وينقل محمد جابر عن الشيخ طنّوس الشدياق في تاريخ الأعيان: «انه في سنة 1026هـ ـ 1617م، ولى خليل باشا الصدر الأعظم، حسين اليازجي سنجقية صفد بعد حادثة المحافظ احمد باشا مع الامير فخر الدين المعني الثاني وفراره الى توسكانا في ايطاليا. (وكان جبل عامل في تلك الايام يتبع عمالة صفد وبالتزام المعنى). فكتب اليازجي الى مشايخها يخبرهم بذلك فقبله بنو منكر وبنو شكر وبنو علي الصغير، وسار الى صفد بستمائة من الرجال. فاعترضه الامير علي ابن الامير فخر الدين، وجرت بينهما معركة قتل فيها اليازجي، واستعاد الامير علي السنجق لاقطاعه. ولكن وزير دمشق لم يوافق على اعادة السنجق للمعنيين الا بتوسط الامير يونس الحرفوش.. وبعد اياب المعني من توسكانا (في العام نفسه)، شدد الطلب على مشايخ البلاد بالأموال المتأخرة عليهم مدة خمس سنين، فنزح آل علي الصغير وبنو شكر الى بعلبك الى عند الأمير يونس الحرفوش.«
وفي تاريخ الامير فخر الدين المعني، يحدّث أحمد الصفدي، عن ذلك ويضيف «ان الامير احمد ابن الامير يونس الحرفوش، عندما تزوج بنت الامير فخر الدين المعني، سكن قرية مشغرة، وأسس بها اساس بنيان، وجعل يكاتب بني متوال من المشايخ المتعينين، فطلع اليه من شيعته وملته بهدايا، اولاد داغر، واولاد علي الصغير، وابن منكر الحاج ناصر الدين، بحجة انهم يسلموا على قرابتهم الحاج علي بن منكر، لكونه كان نازحاً عنهم». ويحدث الصفدي ايضاً انه عندما «نزح مشايخ بلاد بشارة بيت شكر واولاد علي الصغير الى عند الأمير يونس بن الحرفوش، وبلغ الامير فخر الدين ذلك، هدم بيوت اولاد شكر في عيناتا، والحاج علي بن ابي شامة في بنت جبيل، وفرحات بن داغر في قرية انصار، والحاج ناصر الدين بن منكر في قرية الزرارية، وولده في قرية حومين الفوقا، وضبط جميع غلتهم.«
وفي العام 1666 انتفض العامليون على الامارة المعنية، فجاء انه «ما ان ظهر الوهن في حكومة المعنيين، حتى نهض زعماء العشائر من بني عاملة، واجتمعت كلمتهم، وعزموا على تجديد شباب الطائفة واسترجاع حقها السليب، فنظموا صفوفهم، وثاروا في سنة 1077هـ ـ 1666م ثورة رجل واحد، وطردوا عمال ارسلان باشا وفتكوا

فيهم. فأرسل الوالي حملة عليهم مستعيناً بجنود آل معن، فنازلوهم في النبطية ووادي الكفور. وكان الفوز للشيعيين، وفر اعداؤهم، فلحقوا بهم الى عين المزراب، ودامت المناوشات والمعارك نحو ثلاثين سنة، حتى سنة 1109هـ ـ 1697.«

اعداد : انطوان شعبان – 07

مشرف تولى زمام الأمور بعد الشيخ أحمد وبوفاته انحسرت سلطة بيت علي الصغير السياسية.
بعد علي الصغير، برز الشيخ أحمد نجله، او لربما احد احفاده، وهو على الأرجح اشترك بموقعة عيناتا (اذا صحّ انها حصلت عام 1649)، كما اشترك بموقعة النبطية الاولى نحو العام 1666، وموقعة وادي الكفور نحو العام 1667، وقد حصلتا بين العامليين والمعنيين، او لربما بين العامليين وبني علم الدين، وان العامليين في هاتين الحادثتين اثبتوا وجودهم، «فانهم سحقوا عدوهم سحقة بقي اثرها نحواً من اربعين سنة، فقد ظلوا بعدها في أمن ودعة، لا يجترىء عليهم احد من جيرانهم.«
ويعتقد ان زعماء عاملة استقلوا عن المعنيين نحو العام 1666، فهاجمهم الأمير أحمد المعني وانكسر امامهم في النبطية، ثم استعان عليهم بوالي صيدا، لكن العامليين هزموه في وادي الكفور، وطاردوا جيوشه حتى عين المزراب قرب صيدا.
ويشار الى ان الزعامة العاملية في أيام الشيخ احمد، تساوت مع الزعامة المعنية، فصيداء تحولت الى باشوية نحو العام16591، وحكومة عاملة انفصلت فصلاً باتاً عن حكام الشوف، واضحى زعماء جبل عامل وجبال الشوف جميعهم يشتركون في مراجعة علي باشا الدفتر دار والي صيداء، كما يشتركون في الانفصال عن الشام.
ونسب بعض المؤرخين الحرب التي جرت بين علي باشا الدفتر دار والي صيدا، وبين مشايخ المتاولة، الى احمد بن علي الصغير عام 1659، وثمة اعتقاد انه تغلب على هذا الوالي في ذلك التاريخ، واستقل بشطر من البلاد، واشترك هو، وبقية الزعماء بادارة دفة السياسة. وفي تلك الفترة، او بعدها بقليل، كان أحمد «شيخ المشايخ، واصبح هو المسيطر، ومنع الوالي من تعيين متسلمين اتراك، او غير أتراك«..
وجاء في «جبل عامل في التاريخ» انه في العام 1659، قتل علي بن علي الصغير واولاده، وذلك على الارجح، في الموقعة التي جرت بين علي باشا وبين مشايخ المتاولة.
ولعل انتصار الشيخ احمد في موقعتي النبطية، ووادي الكفور المشار اليهما، وفي مواقع اخرى، جعله يفوز بلقب شيخ المشايخ، للمرة الاولى في جبل عامل، وذلك بعد ان نال هذا اللقب عام 1613، الحاج علي واخوه الحاج ناصر الدين ابنا منكر.
وفي اشارة الى مكانته العالية، ذكر انه «في العام 1678، توفي الشيخ احمد بن علي الصغير شيخ المتاولة، وبالطبع ان مأتمه كان حاشداً وكان مهيباً مريعاً، لا لأنه زعيم يستقل بادارة البلاد، ومنقذ كبير استخلصها من جور السلطات المختلفة، وجعلها حرة نحواً من ثلاثين سنة، بل لأنه مات فجأة، وموت الفجأة له روعته، ولا سيما اذا نزل بمثل هذا الانسان.«

الشيخ مشرف بن علي الصغير
بعد وفاة الأمير احمد المعني عام 1697، الذي لم يكن له عقب ذكر، عمّت موجة من الاضطراب الداخلي حول تولي امارة الجبل، استغلتها دولة الاحتلال التركي لتثبيت اقدامها في شكل مباشر. وكان العامليون في معزل عن ذلك، «يسودهم الأمن، ويرفلون في ابراد الدعة والعز، يتمتعون في عيش خضل، وزعامة مطلقة السراح.. وقد بلغ من جرأة زعيم عاملة في ذلك التاريخ، الشيخ مشرف بن علي الصغير، انه قبض على بعض رجال الدولة وقتلهم، ذلك ان مشرفاً رأى نفسه ذات يوم، يفرض سلطته على من يريد وينفذ رغائبه حسبما يشاء، وأوجد حوله آلافاً من الفتيان، فاستشعرت نفسه العظمة، وحدثته بالتمرد والاستقلال.«
وبنى مشرف داره في المزرعة المعروفة بإسمه، حصناً منيعاً يقيه غزوات اعدائه، شرقي صور، على طرف الكتف الأيسر «لوادي عاشور»، وهو واد ضيق، يشكل حصناً عسكرياً طبيعياً مفتوحاً من جهة واحدة، على سهل فسيح يسمى مرج الصفراء. وفي تلك الدار التي اقامها مشرف لتعزيز سلطته، نقش على أحد جدرانها:
قسماً بما حاطت أباطح مكّة --- ومنى وايات الكتاب المنزل
لم أبنها طمع الخلود وإنما --- هي زينة الدنيا لأهل المنزل
كما نقش ايضاً: «اشاد هذا البناء وأعلاه، وأحسن النظر لو كافأ بناه، الشيخ الكبير الملقب بالصغير، شيخ مشرف بن نصار دامت سيادته سنة 801هـ (1696م.«(
وفي العام 1698، تولى ايالة صيداء قبلان باشا، وكان الشيخ مشرف ابن علي الصغير حاكم بلاد بشارة قد قتل اناساً من رجال الدولة، وقصد العصاوة، فاستنجد قبلان باشا بالأمير بشير الاول، فجمع الأمير ثمانية الاف رجل و«كبسوه» في مكان يقال له المزريعة (المزرعة)، فقبض عليه الامير بشير وعلى أخيه الحاج محمد بزيع وعلى حسين المرجي (مدبر الشيخ مشرف، المعروف بحسين عمرو)، وسلمهم الى الباشا، فأمر الباشا بشنق حسين المرجي، ووضع مشرفاً وأخاه في السجن، وأعطى الامير بشير ايالة صيداء من طرف بلاد صفد الى جسر المعاملتين... وبعد ان قبض قبلان باشا على الشيخ مشرف وأخيه، اجر الامير بشير بلادهما، وأقام عليها متسلماً

من قبله الشيخ محموداً ابا هرموش«..
وجاء انه «سير بالشيخ مشرف الى قلعة صيدا، فمات فيها نحو العام 1702.«
وفي تاريخ الامير حيدر الشهابي: «انه في العام 1698 ثار الشيخ مشرف على ارسلان باشا والي صيدا، ونبذ امره والقى القبض على جماعة من غلمانه وقتلهم. واستظهر الوالي عليه بمساعدة الامير بشير الشهابي الاول.«
وفي «رسالة معجم قرى جبل عامل»: «ان عبدون باشا والي صيدا قبض في سنة 1688 على الشيخ مشرف لظلمه وقتله مشايخ القرى في غار المزرعة، مزرعة مشرف.«
ويقول المؤرخ محمد جابر ان مشرف هو ابن احمد بن نصار بن حسين بن علي الصغير، وذلك في معرض دحضه لما ذهب اليه الشيخ علي رضا في ان معركة عيناثا قد حصلت العام 1649، معتبراً انها حصلت قبل الفتح العثماني لسوريا بوقت طويل.
وتبرز بحسب مؤرخين اهمية الشيخ مشرف، في انه نزع الى الاستقلال والسيادة، ولكنهم اخذوا عليه الغرور والتهاون، فهو لم يحرك ساكناً عندما غزا بلاده نحو العام 1692 الامير يونس الشهابي، وقتل بعض رجال السلطة، واراد التوسع في السلطة من دون ان يرتبط برجال الامة، ويقف على رأي قادة الثقافة والفكر. ومن هنا، يرى مؤرخون ان الامير بشير عندما حكم البلاد، عمل على سدّ الثغرات في سياسة مشرف الاجتماعية والانمائية «فانه بعدما انتهز فرصة غضب السلطة وغفلة مشرف استولى على البلاد، وقام ببعض المشاريع الحيوية، فرمم بعض العيون، وصفا له الحكم، وبقيت البلاد تحت تصرّفه الى ان توفي عام 1707.«

تراجع العائلة السلطوي
وبعد الأمير بشير، تولى الامارة حيدر الشهابي، وقامت وفي وجهه الثورات، واستعاد آل علي الصغير حكم بلادهم «فجاء انه في العام 1705 فاز العامليون فوزاً تاماً، فلما رأى بشير باشا والي صيدا حالة الشيعيين ازداد قوة، فهادنهم ورفع سلطة اللبنانيين عنهم، وسلخ بلادهم عن سنجقية صفد، وولاّهم حكومة بلادهم.«
وفي العام 1708 «ركب الامير حيدر لغزو بلاد المتاولة، لأن المشايخ (اليمنيين) بني علي الصغير، بعد وفاة الامير بشير كانوا قد تولوا بلاد بشارة من يد بشير باشا، وبقي في يد الامير حيدر حكم بلاد الشوف وكسروان، فغزاهم الامير حيدر برجال بلاده، فعظم ذلك على بشير باشا وكان متولياً ولاية صيداء، فأرسل يقوي الأمراء اليمنية الذين كانوا في الغرب والجرد من بني علم الدين وغيرهم..
وبعد هذه الواقعة «استأجر» الأمير حيدر بلاد بشارة من بشير باشا، وأقام الشيخ محموداً ابا هرموش القيسي «متسلماً من قبله فيها»، ثم أقاله عام 1709، لعدم ايفائه المال المطلوب، غير ان الشيخ محمود المذكور استعان بوالي صيدا الذي استحصل له على الأوامر بتوليته بدلا من الأمير حيدر، فدعي الشيخ ابا هرموش «أمير ميران»، وفرّ الأمير حيدر، وتحالف الشيخ القيسي ابو هرموش، مع الزعماء اليمنيين وغيرهم لتوطيد حكمه. وفي العام 1710، عاد الأمير حيدر الى المسرح السياسي والعسكري من جديد واستعاد الحكم بمساعدة القيسيين، وقضى على أبي هرموش واليمنيين، وذلك في موقعة عين دارا الشهيرة عام 1711.
ومن خلال بعض الاحداث رأى مؤرخون، انّ سلطة بيت علي الصغير السياسية، اخذت منهم بعد الشّيخ مشرف منذ العام 1697، وذلك حتى العام 1809، باستثناء فترة قصيرة في العام 1705. ففي العام 1712، «حكم الامير قاسم الشهابي، حاكم حاصبيا على بلاد بشارة من يد والي صيداء، وانشأ بها مظالم، وقبض عثمان باشا (والي الشام) ـ قبل عزله وانتقاله الى البصرة ـ وعلى الشيخ منصور بن علي الصغير وقتله.«
وجاء ايضا انه في العام 1701 «القي القبض على علي منصور ومحمد بزيع (شقيق الشيخ مشرف)، في انطاكيا».
كما ذكر ايضا انه في العام 1719، «القى عثمان باشا القبض على الشّيخ عبد السلام الحر وعلى علي منصور، وتوفي الحاج محمد بزيع.«
ويعتقد ان محمد بزيع، قد تحرّر من الاسر، واستطاع ان يؤدي فريضة الحج، بعد ان القي عليه القبض في انطاكيا. وانه شقيق مشرف، وبذلك «يكون آل بزيع الموجودون في قرية زبقين فرعا من الاسرة الصّغيرية، ولعلّ آثار الابنية الفخمة الموجودة فيها، من بقايا ذلك العهد، فيكون مشرف، بنى داراً في المزرعة، واخوه محمد بنى مثلها في زبقين.«

الشيخ نصّار بن علي الصّغير
وفي العام 1731، كان ثمة دور للشيخ نصّار بن علي الصّغير، فكان يحكم منطقته يوم حادث جويّا في ذلك العام، فجاء أنّه في العام 1731 «استأجر الامير ملحم حيدر الشهابي (حاكم الشوف) بلاد بشارة من يد وزير صيدا (اسعد باشا العظم) بموافقة الشيخ سليمان الصّعبي (وهو والد الحاج علي سليمان بن ابي صعب المتوفي سنة 1175هـ (1761م)، وقبض على الشيخ نصار بن علي الصّغير، وباغت اخوته في قرية جويا، فهربوا الى بلاد القنيطرة، وقتل ثلاثة عشر شخصاً من قبيلتهم.. ثم رجع اولاد نصّار وفكّوا اخاهم، واستأجروا بلادهم من الامير ملحم، وكان في تلك السنة موت عظيم، وتوفي الشيخ سليمان الصّعبي.«

ولم يحسم المؤرّخون، من هو بالتحديد نصّار بن علي الصّغير، اهو نصّار الاحمد ام هو نصّارت بن مشرف؟ وحدّد احدهم نسب نصّار الاحمد، بأنه نصّار بن الشيخ احمد بن نصّار، بن مشرف، بن احمد، بن نصّار بن حسين بن علي الصّغير، وذكر آخر انه: «كان رئيس البلاد وحاكمها من طرف الدولة العليّة، شهما، هماما، بلغ من الشهامة اقصى الغاية من حكمة ودراية، واشتهر ذكره وارتفعت منزلته، وفي زمانه كانت حادثة «موقعة البحرة»، وكانت نتيجتها غرق الجيش الذي نازله بها في بحرة (حولة الشعراء)... وروي انّه بعد نصف القرن المنصرم، قد عثر بعض النّاس على قطع اسلحة غريقة بالماء، من هاتيك الحادثة.«

وفي كل حال، وبحسب بعض المؤرخين، فإن تلك الفترة، اي ما قبل العام 1749، قد اكتنفها الغموض. ولكن بعد هذا التاريخ، بدأت تتضّح اكثر وقائع التاريخ العاملي، ففي العام 1749 «شرع زعماء عاملة في ترميم القلاع والحصون، فقامت قلعة تبنين وهونين ودوبيه ويارون وشمع وجبع وميس، وغيرها. واعيدت مدينة صور فتية بعدما كانت خرابا لا يقيم فيها احد«...

صّراع الزعامة بين آل نصّار

وعن مراكز النفوذ في جبل عامل، جاء انه: «كانت جبال عاملة تقسم الى ثماني مقاطعات، خمس منها تحت سلطة آل علي الصّغير، وهي تبنين، وهونين وساحل معركة، وساحل قانا، ومرجعيون، ومقاطعة واحدة تحت سلطة آل أبي صعب، وهي مقاطعة الشّقيف، ومقاطعتان تحت سلطة آل منكر، وهما اقليم الشومر وجباع. وكان الحاكم يؤدّي عنها ستّين الف غرش سنويا، مقسّطة على اثني عشر شهرا.«

وعن صراع النفوذ على حكم مقاطعات جبل عامل، بين آل علي الصّغير، ان «الشيخ قبلان ابن الشيخ حسن ابن الشيخ احمد ابن الشيخ مشرف بن محمد بن حسين بن علي الصّغير، كان زعيما قويا سديد الرأي، وافر التدبير، انتهت اليه رئاسة العشائر ومشيخة المشايخ بعد وفاة والده سنة 1150هـ ـ 1735م، ووصفه المؤرّخ الفرنسي ادوار لكروا في كتابه «تاريخ سوريا ومصر»، وقال: «منذ زمن بعيد رفض المتاولة دفع الميرة لباشا صيدا، وكانوا امناء للشّيخ ظاهر العمر، مع بقائهم على استقلالهم. وهناك شيخ اسمه قبلان، لم يكن يتداخل في الحروب. وتصوره مراسلات القناصل فيلسوفا حكيما، لانه عرف كيف ينال رضى السلطان بإرسال الميرة اليه رأسا اربع مرات في السنة. فكانت العواصف تمرّ فوق رأسه دون ان تمسّه. وكان هؤلاء الشيوخ يسكنون القصور المحصّنة احسن تحصين.«

وقد نقل الشيخ قبلان «مركز حكومته من مزرعته (مشرف) الى قلعة هونين، واستأثر بحكومة جنوبي جبل عامل، او بلاد بشاره الجنوبي كلها، لانه كان رأس العشيرة واكبر زعمائها سنّا واعرضها جاها. وكان بقية افراد الاسرة فتيانا حديثي السنّ. وفي العام 1750، نشأ خلاف بينه وبين ابناء عمّه على حكم المقاطعة، انتهى بتحكيم الشيخ ظاهر العمر، وكان صديقا لزعماء جبل عامل، فانقسمت المقاطعة الى ثلاثة اقسام، فكان سهم الشيخ قبلان: جبل هونين، وسهم الشيخ ناصيف: جبل تبنين والبلدان الجنوبية كلها، وسهم الشيخ عبّاس: مقاطعة قانا ومقاطعة شحور ومقاطعة الشعب. واعطيت صور للشيخ قبلان، فرفض قبولها بحجة انها بلد خربة، لا يوجد فيها الاّ مصنع للملح، فأعطيت للشيخ عبّاس. فاستلم عبّاس صور، وبنى فيها دارا للحكومة لم تزل عامرة الى اليوم، وموقعها على باب المدينة، وأشاد فيها مسجدا وكنيسة، وسوقا ودورا كثيرة، واسكن فيها عائلات كثيرة من المسلمين والمسيحيين من سكان جبل عامل وجبل لبنان. وكان يصرف فيها فصل الشتاء، ويصيّف في قلعة مارون الواقعة في ناحية شحور بالقرب من دير دغيا. ولم يمض اربع سنين حتى غدت صور بلدة تجارية... وأمت اليها السفن الشراعية لافراغ شحنها وابتياع حاصلات البلاد من حبوب وتبغ وقطن وزيوت.«...

وبعد ذلك هاجم الشيخ قبلان صور على رأس اربعمائة فارس «ونهب دورها ومتاجرها حتى حلي نسائها، واسر الشيخ حمزة اخ الشيخ عباس، وكان صغيرا وسار بهم الى هونين» في محاولة لاسترجاع المدينة بالقوة، مغتنما فرصة غياب حاكمها عبّاس ونجله حسين عنها في زيارة للشيخ علي الظاهر في قرية الخش. ولكن الشيخ عبّاس شنّ هجوما معاكسا على قوات الشيخ قبلان، وانتصر عليه في وادي الحجير، «فأخذه اسيرا وسجنه في قلعة مارون. ولكن الشيخ ناصيف النصار عاد فعقد راية الصلح بين ابني عمه قبلان وعباس في قلعة مارون، وذلك بيده وبكفالته، وإكراما له عاد الشيخ عباس فسامح الشيخ قبلان بالمال الذي قدّر ثمنا لما كان سلبه قبلان من صور، ووعد بالتعويض على اصحاب المسروقات من ماله الخاص، وذلك بعد ان ارسل ناصيف النصار ولده عقيلا الى قلعة مارون ليبقى رهينة لدى الشيخ عبّاس حتى يفي قبلان ما ترتب عليه من مال ثمنا لما نهب من اهالي صور وتجارها.

اعداد: انطوان شعبان -08

في تفاصيل توزّع مراكز النفوذ الاقطاعي وطبيعة الحكم في جبل عامل، في مطلع النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ذكر انه كانت «تبنين مقر الشيخ ناصيف وابن أخيه حمد البك، وحفيد أخيه علي بك الأسعد، وكانت قلعة الشقيف مقر علي الفارس، وكانت جبع مقر اخيه حيدر الفارس، وكانت دوبيه مقر مراد اخي ناصيف، ومقر ولده قاسم المراد، وكانت هونين مقر قبلان واخوته، ولعل ميس ويارون كانتا تابعتين له وكان فيهما حصون، وكانت شمع مقر واكد واولاده عمر الواكد واخوته، وكانت صور ومعركة وقانا وطرفلسيه مقر عباس المحمد وابن أخيه عباس العلي واخوتهما، وكانت شحور مقر حمزة المحمد اخي عباس المحمد (بعد انقضاء عهد ناصيف)، كما سكن في ميس وحاريص (على عهد ناصيف)، وكان حمد العباس المحمد يقيم في صور بعد أبيه، وكان فارس الناصيف واخوه شبيب (بعد ابيهما يقيمان في الطيبة والزرارية«..(

وذكر ايضاً انه «في القرن الثامن عشر كان يحكم جبل عامل، مجموعة من المشايخ الاقطاعيين المتاولة، يتولى كل منهم ادارة احدى مقاطعاتها، ويقيم فيها مع اتباعه المزارعين، الذين يتعهدون ارض المقاطعة لحسابه، في مأمن بعيداً عن اي تصد مفاجىء من قبل السلطات العثمانية. وينتمي هؤلاء المشايخ الى ثلاث عائلات اقطاعية، كانت لها السيادة الاولى في جبل عامل، وهم بنو صعب في مقاطعة الشقيف، وبنو منكر في الشومر والتفاح، وبنو علي الصغير في بلاد بشارة، وكانت زعامة البلاد في البيت الأخير. وكان بامكان كل شيخ ان يجند عند الحاجة من مئتين وخمسين ا لى ثمانمئة رجل، اذا اجتمعوا معاً يشكلون قوة قتالية قوامها الفان وخمسمائة خيال، وثلاثة آلاف وخمسمائة مشاة تقريباً. وقد اشتهروا بشجاعتهم في كل سوريا، وعند الحاجة تصدر الأوامر الى جميع القرى بالاستعداد للمسير ضد الاعداء، والوحدة الدينية تكاد تكون هي الرباط الوحيد لاتحادهم السياسي. واشار الدبلوماسي الفرنسيParadis ، بأنه شاهدهم يقاتلون بترتيب ونظام، مما جعلهم ينتصرون على اعدائهم الذين يفوقونهم عدداً. ويخضع هولاء المشايخ لسلطة شيخ أعلى يدعى شيخ المشايخ». يقيم في قلعة تبنين، أمنع مواقع هذه البلاد، يجمع الميري منهم ومقدارها مئتا كيس ويدفعها لوالي صيدا، وكان يأتي في الأهمية بعده الشيخ قبلان حاكم مدينة صور. وحين كانت تسوء علاقة هؤلاء المشايخ مع الباشا العثماني، كانوا يتمنعون عن دفع الضريبة ويهددون بالاصطدام مع قواته.«

وجاء ايضاً: «وقد نقل الينا القنصل الفرنسي في صيدا، صورة لعصيانهم، ومدى ضعف سلطة الوالي عليهم، فورد في تقرير القنصل الفرنسي في صيدا ـ مجموعة (AEB1) سجل رقم 1030 تاريخ 1755/11/4: «..طلبت من الباشا الحاكم ان ينصفني، لكنه أبدى لي استياءّ من تصرف هذا الشيخ المتمرد (أي ناصيف النصار) الذي يتمنع عن دفع الميري المتوجبة للسلطان«..

وفي تقرير القنصل الفرنسي في صيدا ايضا ـ مجموعة (J) ملف 795 تاريخ 1754/21/4: «..ارسل الشيخ (اي ناصيف النصار) مائة وخمسين فارساً لمصادرة البضائع، وامرهم بمصادمة قوات الباشا اذا حاولت منعهم«..

وذكر ايضاً، مما كتبه الدكتور حسين سلمان سليمان، ان زعماء جبل عامل تحالفوا «في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، مع قوى محلية تمردت على السلطة العثمانية في بلاد الشام الجنوبية ومصر (ظاهر العمر، وعلي بك الكبير)، فانزلوا معاً هزائم مذلة بقوات كل من والي دمشق (العثماني) وامير جبل الدروز يوسف الشهابي«..

{الشيخ ناصيف النصار{

ومنذ العام 1749 «برز من ال علي الصغير، الشيخ ناصيف النصار، فكان سيد المرحلة التي امتدت حتى العام 1780، تاريخ مقتله، فمن هو الشيخ ناصيف؟

هو ناصيف بن نصار الثاني بن نصار الأول بن أحمد بن نصار بن مشرف بن احمد بن نصار بن حسين بن علي الصغير.

وقد جاء في وصفه وسيرته وأهم مواقفه، انه «كان بطلاً شجاعاً واميراً مطاعاً.. ولم يشترك في حرب من الحروب الا وكان النصر حليفه، الى ان انزلق به جواده على الصخرة المعروفة باسمه قرب مقبرة يارون، وجاءته رصاصة طائشة ووقع شهيداً في سبيل حرية بلاده وكرامة قومه.. وكان زعماء عاملة قبل عهد ناصيف لا تجمعهم جامعة ولا تربطهم رابطة مع انهم اهل دين واحد، ومذهب واحد ولغة واحدة، ويعيشون في قطر واحد، فقد كان يغزو احدهم الآخر، ويعادي صديقه، فكثيراً ما استقل قبلان (من آل علي الصغير) في حرب، وكثيراً ما استقل عنه بنو عمومته في حروب اخرى. وقد جرى بين محمود النصار (شقيق الشيخ ناصيف) وبين (ابن عمه) قبلان، وبين عباس العلي وبين ابن ابي صعب، مناوشات بسيطة في ظروف مختلفة في ايام وحدتهم، فما ظنك بهم قبل ذلك؟«

ومن جهة اخرى، كان زعماء جبل عامل قبل الشيخ ناصيف «مع جيرانهم في فلسطين، وجبل الدروز والشوف على أشدّ ما يكون من الخلاف والنزاع، وكان جميع زعماء هذه الاقطار يناوىء بعضهم بعضاً، وكان ولاة العثمانيين يغذّون هذا الخلاف، ويستعينون بسببه على احدهم بالآخر.«

ولكن منذ العام 1750، راحت تتوحّد كلمة ابناء جبل عامل، فاقتسموا مناطقهم في ما بينهم، وشرعوا يرممون

القلاع ويشيدون الحصون فيها، ولم يفوّت الشيخ ناصيف رائد هذه الوحدة، فرصة، في محاولة توحيد كلمة العامليين والفلسطينيين والشوفيين، والبعلبكيين، ليجعل من وحدتهم هذه «سوراً منيعاً لا يجد الأتراك فيه منفذاً يدخلون منه لتفرقتهم، ثم الاستعانة ببعضهم على الآخر.«

وكان الشيخ ناصيف، «قد اصدر منشوراً في العام 1749 بنقل مراكز الحكومات الى القلاع والحصون، وشحنها بالسلاح والمقاتلين«..

ويبدو من خلال تتبع الأحداث، ان الشيخ ناصيف «كان ممتطياً صهوة جواده متنقلاً من قطر الى قطر، ومن بلد الى بلد، ليجمع كلمات زعماء هذه الاقطار، محاولا تكوين وحدة واسعة النطاق، وانه هو وحده المعني بهذه المهمة دون من عداه من هؤلاء الزعماء.«

ومن خلال الشواهد والاحداث المتسلسلة الكثيرة، أمكن للمتتبع، ربما التأكيد بان دوافع هذا الشيخ العاملي في مسعاه التوحيدي، كانت وطنية قومية بحتة، فحاول من خلال مشروعه الاستقلال عن السلطة العثمانية، وابدى فضلاً عن مواقفه البطولة، وعياً سياسياً متقدماً في الاحاطة بالواقع المحلي والاقليمي في ايامه، وقراءة نوايا الغزاة والمستعمرين، والتحذير من فتن العثمانيين واهدافهم العدوانية.

وفي ما يلي تتلاحق اجتماعات الوفاق والوحدة، وابرز مواقف الشيخ ناصيف الدالة على ما تقدم:

ففي العام 1742، حصلت واقعة انصار الثالثة بين العامليين والامير ملحم الشهابي، وفي العام نفسه حصلت واقعة قدس الاولى، بين العامليين وسليمان باشا العظم. وفي العام 1743، حصلت واقعة مرج عيون الاولى بين العامليين والشهابيين، وانتصر فيها العامليون، وبلغوا من القوة والبأس مبلغا عظيما، حتى انهم صاروا يغيرون على الجند العثماني خلال انتقاله من بيروت الى عكا.

وفي العام 1752 اغار الشيخ واكد والشيخ ناصيف على عرب القنيطرة، وفي العام نفسه اغار الشيخ قبلان والشيخ عباس على عرب مرج رميش.

وفي العام 1758، حصلت واقعة رأس العين الاولى بين الشيخ ناصيف والشيخ قبلان من جهة، وبين والي صيدا سعد الدين باشا العظم من الجهة الاخرى.

وفي العام 1864، شنّ الشيخ ناصف والشيخ عباس بعسكرهم وعسكر الدرّفة هجوما على وادي المعظمية، فسحقوا عسكر علي الظاهر العمر.

{ناصيف النصّار يوحّد الصفوف{

وفي اثر تلك الانتصارات، شرع الشيخ ناصيف بعقد «جمعيات» الوحدة، ففي العام 1764، «صارت الجمعية بين الشيخ ناصيف والشيخ عباس المحمد بن نصار (حاكم صور) وعلي فارس (الصعبي) والامير اسماعيل والشيخ علي جنبلاط (من زعماء الدروز) في حاصبيا». وفي العام نفسه «ركب الشيخ ناصيف والشيخ عباس المحمد، والشيخ عثمان الظاهر (ابن الشيخ ظاهر العمد والي عكا)، الى بلاد الدروز في الجمعية.«

وفي العام 1766، كانت واقعة صفد بين زعماء عاملة وبين علي الظاهر العمر، فانتصر عليه هؤلاء.

وفي العام نفسه «تحرّش الشيخ ظاهر العمر بالعميد الوائلي ناصيف النصار، وكتب اليه ان يتخلى عن قريتي البصة ومارون بدعوى انهما تابعتان لفلسطين. وادرك العميد الغاية، فردّ رسوله ردا عنيفا، وقال له: قل لمولاك يتحرّش بغيرنا، فليس له عندنا الا السيف والنار، واصدر امره حالا بالتأهب للحرب وذهب الصوات يجوب انحاء البلاد للنفير العام، وبلغ ظاهر العمر جوابه، فطرد عمال ناصيف من القريتين، ونهض لاكتساح بلاد عاملة...

وجرت موقعة حربية كبرى، انتصر فيها العامليون على الزعيم الفلسطيني الشيخ ظاهر العمر، وكانت في اساس تحالف الشيخ مع العامليين. وقد دارت رحى هذه الموقعة في قرية تربيخا (من قرى جبل عامل الواقعة بالقرب من حدود فلسطين)، وفي الدولاب (اسم مكان جنوبي تربيخا) وذلك بين قوات حاكم البلاد في تلك الفترة الشيخ ناصيف النصار، وقوات ظاهر العمر، وقد اسفرت المعركة عن هزيمة ظاهر، وانتصار الزعيم العاملي ناصيف الذي «غنم مئة فرس قتل فارسها» وغنم فرس الشيخ ظاهر، بعد ان احكم الرمح في صدره، وعفا عنه، وانزله عن فرسه المعروفة بالبريصة (تصغير برصاء.(

ثم اعادها له قائلا: «لا حاجة لنا بالريصة بعدما رجعت لنا البصيصة» (في اشارة الى استرجاع قرية البصّة التي كان استولى عليها الشيخ ظاهر، وهي داخلة في المقاطعات التي كان يحكمها الشيخ ناصيف)، ويقول الشيخ علي السبيتي ان الشيخ ناصيف عاد فأركب الشيخ ظاهر على فرسه البرصاء بيده. وقد ابدى في هذه الواقعة «الشيخ علي الفارس الصعبي، والشيخ محمود النصار في ذلك اليوم بسالة غريبة.«

ومما جاء في قصائد شعراء جبل عامل عن هذه الموقعة. ما قاله الشيخ ابراهيم يحيي في مدح ابي حمد الشيخ محمود النصار، وهنا بعضه :

»وغانية مثل الهلال تركتها -- وادمعها تنهل فوق الترائب

تقول الى من تقطع البر صاديا -- فقلت الى محمود بحر المواهب

ابي حمد حامي البلاد ومن جرى -- ندى كفه في شرقها والمغارب

انامله في الحرب خمس صواعق -- وفي السلم لا تنفك خمس سحائب

لعمرك ما انساه يوم تألبت -- عليه الاعادي من فتيّ وشائب
وثار لهم من آل نصّار عصبة -- على كل معروق الجناحين شازب«
ومما قاله الشيخ ابراهيم في وصف الفريق الآخر :
»فأقلقهم وقع الحسام وادبروا -- يروغون من اسد الشرى كالثعالب
كأني بهم عند المضيق وقد هوى -- هنالك رأس القوم من غير ضارب...
فلست ترى الا سلاحا على الثرى --- وخيلا بها فقر الى كل راكب
واعجب شيء ان خمسين فارسا -- تمزّق الفي فارس بالقواضب

ومن قصيدة الشيخ ابراهيم الحاريصي، في مدح الشيخ ناصيف النصار قوله:
»وافى بها في يوم تربيخا وقد -- جاست خيول الدارعين خلالها
طاقوا عليها بالصوارم والقنا -- فكأنهم قطع الغمام حيالها
فسطا ونادى لا قرار فأدبرت -- تلك الجموع ونالها ما نالها
عافت هنالك خيلها وسلاحها -- والرعب من تلك السروج امالها.«

اعداد: انطوان شعبان – 09

في 01 حزيران 1772م (6 شوال 1186هـ)، جرت «واقعة صيدا» او معركة الحارة، وفي تفاصيلها انه «لما انتصر الشيعيون في المعارك السابق ذكرها تهددوا والي صيدا درويش باشا ابن عثمان باشا، وارغموه على الهرب، فأخلى المدينة ملتحقاً بوالده، واحتلها الظاهر وحلفاؤه، وعين لها حاكما أحمد آغا الدنكزلي، وجهز عثمان باشا حملة بقيادة خليل باشا والي القدس (الدالي خليل)، فسارت الى صيدا اولا وحاصرتها لكي بعد سقوطها في ايدي المحاصرين، يستأنف الهجوم الى جبل عامل لسحق الشيعيين وانصارهم. واجتمع في النبطية قواد الشيعة وحكام المقاطعات وعزموا على مداهمة العدو ليلا والفتك به. فاختاروا من رجالهم خمسماية فارس ولفوا حوافر خيولهم باللباد لكي لا يسمع لسنابكها صوت عند المسير، ودهموا عسكر العدو في ضاحية صيدا قرب قرية الحارة، وكانوا يحاصرون المدينة، فألجأتهم قنابل الاسطول الروسي ان يتقهقروا للضواحي فوقعوا بين نارين، وأحاطت خيل الشيعة بهم في ليلة حالكة السواد، وهم نيام فأصلوهم ناراً حامية، فهبّوا مذعورين يفتك بعضهم بعضاً.«
ويذكر ان القوات التي تحركت لحصار صيدا بأمر من «الدولة العلية»، قدرت بنحو 20 الفا، وهي بقيادة الأمير يوسف، ومعه «الدالي» خليل، واحمد باشا الجزار. وأما القوات المدافعة فكانت بقيادة الشيخ ناصيف وحليفه الشيخ ظاهر العمر، يدعمهم فرسان من «غز مصر»، بقيادة علي بك الطنطاوي، وهولاء كانوا مع علي بك الذي كان حضر في ذلك الوقت للقاء الشيخ ظاهر، فكاتبا ملكة «المسكوب» فأمدتهما بالمراكب التي وصلت الى عكا واشتركت، كما مر، بفك الحصار عن صيدا.
واما المعركة الفاصلة، آنذاك فنشبت «في سهل الغازية وانجلت عن فوز الشيعيين وانهزام العدو«..
وقد برز في هذه الواقعة محمود النصّار شقيق ناصيف، وآخرون من آل علي الصغير ايضاً، منهم قاسم المراد النصار، وعباس المحمد النصار، وعباس العلي المحمد وغيرهم:
ومما جاء في قصيدة شناعة، الشاعر العاملي الشعبي، حول واقعة الحارة:
»يقول المريحي من ضميرو -- بيوت من الذكا فيها، بناها
ويذكر وقعة صارت بصيدا -- جموع وما لها حد تراها
من الشّوف العريض ومن بعلبك -- جراد قد غشى ثراها
لفا الجزار والدالي معاهم -- كراد وغز ما نفهم لغاها
ولا نعرف كواخي من امارا -- ولا نعرف تواعب من لفاها
عقيد الكل مير الشوف يوسف -- بقومو صار للحارا واجاها
وقال اليوم نملك باب صيدا -- ونملك ديرة بشارة معاها
حتم ناصيف بالجيرة وزمزم -- برب البيت والمختار طه
مزالي جاذب السرعين بيدي -- بلادي ما أحد غيري يطاها
ونبّه عارجالو مع ابطالو -- اسود الحرب يا ما اصعب لقاها
حلف محمود بالدين المعظم -- ورب العرش والياسين طه
ما زالي ناقلاً للرمح بيدي -- بني متوال في عز وجاها
علي الفارس تفرّس بالفضايل -- بلادو من العدا دوما حماها
علي الفارس شديد الباس صعب -- جموع الضد في سيفو محاها
وقاسم سترها يوم الهيازع -- اذا شحّ الندا قاسم نداها
وعباس المحمد كان حاضر -- برمحو جال بالهيجا وجاها
وعباس العلي ذيب المشاتي -- أخو شيري بنيرانو حماها
مشاعيل الطراد اولاد واكد -- على خيل غدت عنها فلاها
عفا يوم لفي الصوات صايح -- اتوا من كل فج ومن فلاها
فتاهم كل واصول غشمشم -- حماة الصور بو محمّد فتاها.«

الأمير يوسف يستنجد بالشيخ ناصيف
وبعدما انتزع الأمير يوسف شهاب، عام 1772 بمساعدة الشيخ ظاهر والمراكب الحربية المسكوبية، بيروت من يد احمد باشا الجزار وفتحها، وقع الخلاف بينه وبين والي الشام عثمان باشا المصري، «فجهز الباشا عسكراً مؤلفاً من خمسة عشر ألفاًَ وخرج به الى البقاع وضرب خيامه في بر اليسا (بر الياس)، فجمع الأمير يوسف عسكر بلاده وتوجه الى المغيثة وجرت بينهم جملة وقائع، فاستنجد الأمير بالشيخ ناصيف النصار، فسارع ناصيف لنجدته وقاد فرسانه بنفسه، ومذ وصل الى القرعون وعلم بذلك عثمان باشا، هرب ليلاً بعساكره الى دمشق تاركاً اكثر

الميرة والذخائر والمدافع، وعند الصباح حضر عسكر الامير الى القرعون واخذوا ما وجدوه واحضروا المدافع الى قلعة قب الياس وطلب الامير الاجتماع بالشيخ ناصيف «للاكرام فأجاب بما انه لم يبق حاجة لا يمكنه المكث وانثنى راجعاً الى بلاده ورجع الامير يوسف الى دير القمر»، وصارت بينه وبين زعماء عاملة محبة عظيمة، وزالت من بينهم الاحقاد القديمة، وأخذوا على بعضهم العهود والمواثيق..«

ويورد المؤرّخ الركيني انه في اثر موقعة القرعون المشار اليها، «وفي نهار السبت 22 رجب (1187هـ ـ 1772م)، انعقدت جمعية بين ناصيف والدروز في وادي صيدا وتمت المعاهدة.«

وفي العام 1773، شنّ محمد بك ابو الذهب والي مصر، حملة، باذن الباب العالي، لتأديب ظاهر العمر، الذي فرّ من امامه «الى صيدا، ثم رجع منها الى صفد، ثم فرّ ومعه اولاده وثقله الى عرب عنزة، فأرسل احمد آغا الدنكزلي رسالة الى ابي الذهب يعرض فيها طاعته، فأقره في صيدا، وكان متسلماً فيها من قبل الشيخ ظاهر، ثم حضر الشيخ ناصيف النصّار الى مقابلة أبي الذهب، وصحب معه عشرين حصاناً من جياد الخيل وقدمها له، فطيب قلبه وأمره بالاقامة عنده لبينما يحضر جميع زعماء عاملة«..

وفي تفاصيل ذلك، جاء ايضاً، انه في العام 1774 «وصل الخبر باستيلاء ابي الذهب على يافا ثم جاء الى عكا وفر الشيخ ظاهر الى صيدا ثم رجع الى صفد.. وفي نهار السبت رابع ربيع الثاني، سافر الشيخ ناصيف الى عكا للاجتماع بأبي الذهب فأكرمه اكراماً زائداً، وكانت شفاعته لديه ماضية في كل ما يريد.. ثم توجه الشيخ قبلان (من آل علي الصغير ايضاً) لمواجهة ابي الذهب في عكا وبينما كانت الناس منه في وجل عظيم، واذا به صريع القدر.. فتنادى عسكره بالرحيل وحملوا جثمانه محنّطاً، ورجع الشيخ قبلان والشيخ ناصيف سالمين غانمين.«

وبعد موت أبي الذهب سيطر حسن باشا غازي على عكار، ودخلها محتلاً، وفرّ اولاد الشيخ ظاهر الذي قتل اثناء الهجوم، ملتجئين الى الشيخ ناصيف النصار.. «وعندما استولى حسن باشا على المدينة ارسل اماناً الى اولاد الشيخ ظاهر وكانوا لم يزالوا عند الشيخ ناصيف فحذرهم الغدر فلم يقبلوا، ولما أحضروا بين يدي حسن باشا امر بهم فاوثقوا كتافاً وهم المشايخ الأربعة عثمان وسعيد واحمد وصالح..«

{ابن النصّار يعفو عن قاتلي أخيه{

وفي العام 1778، «استنصر عرب الصقر، وعرب السردية، وعرب بني صخر بالشيخ ناصيف النصار على خصومهم بني حسن المرؤوسين لال المزيد، وكان آل المزيد قد استنصروا بالحكومة، وكان اسم رئيسهم فاضل المهنا، فأمدهم ناصيف بجيش ذي عدة وعدد«..

وكانت ساحة المعركة التي اطلق عليها اسم «واقعة الرقاد»، في «الجيدور» من اعمال حوران على مقربة من «الحارة»، وقد قتل فيها الشيخ ابو حمد محمود النصّار شقيق الشيخ ناصيف، وذلك في نهر الرقاد الذي كان يفصل بين القوات المتحاربة، وقتل معه «ابن اخيه قاسم المراد النصار صاحب قلعة دوبية ومئة فارس وقد قطعت الحكومة رؤوسهم ورؤوس من مات من البرد وجرّدهم اعداؤهم من اللباس وتركوهم عرايا مسلبين، وعندما فهم بنو حسن بقتل أبي حمد ايقنوا بالهلاك والبوار، وتهيأوا للفرار، وطلبوا الفيافي والقفار«..

ولم يتأخر الشيخ ناصيف عن الثأر لأخيه، لكنه سجل مأثرة تاريخية في العفو عند المقدرة، عن قاتلي شقيقه، وفي التفاصيل انه «لما انتهى الخبر الى ناصيف هبّ للأخذ بالثأر، وطار بما تيسّر له من الفرسان واقتفوا اثر المنهزمين.. ولما لاحت اشباح الغزاة للمنهزمين ايقنوا بالهلاك والبوار، فنجوا بانفسهم تاركين الاثقال والنساء والاطفال، فانتهى ناصيف الى منازلهم ورأى آثار التسليم بادية، ولم يجد في المنازل احداً من الرجال فعندها حملته سجاياه على العفو والاحسان، فأمر الفرسان باعتزال البيوت، ونزل هو في بيت كبيرهم، ودعا بأكبر اولاد فاضل المهنا، وكان له من السن دون العشرة فخلع عليه فروا ثميناً، ثمّ دعا بأولاد الشيوخ والموجهين فخلع عليهم كلا بحسبه، فضجّ الحي ومن فيه بالدّعاء والابتهال«...

وقيل ايضا انه «وجد ولدَين مجدّرين في الحارة لفاضل المهنا، فخلع عليهما...

ومما جاء في قصيدة شاعر عاملة الشيخ ابرهيم يحيى، التي أرّخ فيها وفاة الشيخ ابي حمد:

»أقول والنار في الاحشاء ساطعة -- والدّمع ما بين منهل ومدرار
يا ليت شعري اينجاب الدّجى وأرى -- من المسرّة شمساً ذات انوار
ويسفر الدّهر عن يوم نصادف في -- تاريخه ثأر محمود بن نصّار.«

ناصيف يواصل لقاءات الوحدة

وفي موقف سياسي لافت يدلّ على ان الشيخ ناصيف كان «متيقظا لحركات احمد باشا الجزار عالما بنواياه، ساهرا على مصالح الاقطاع اللبنانية اجمع، لانه كان يحاول قطع العلاقات بين الجزار والزعماء من جهة، ويحاول اصلاح ذات بينهم من جهة اخرى، ففي العام 1780 (1995 هـ)، اجتاز الامير يوسف الشهابي بالشيخ ناصيف النصار، وهو ذاهب الى عكا... ولم يكن مع الامير يوسف الاّ خدمه والشّيخ كليب نكد، فلتلقّاه الشيخ ناصيف ونهاه عن النزول الى عكا، وقال له انه يسلمه بلاد الشّيعة، ويكون هو تحت يده، فما قبل الامير يوسف، ولما وصل الى عكا استقبله الجزّار وأكرمه.«...

وواصل الشيخ العاملي مساعيه من أجل اتحاد الزعماء اللبنانيين، ففي العام 1780، «صارت الجمعية بين الشّيخ

ناصيف والامير محمد الحرفوش في الطّيبة من بلاد عاملة، وركبت خيل الشيخ ناصيف مع الامير الحرفوش الى بعلبك.«...

ومنذ العام 1775، راحت تتفاعل الاحداث التي انتهت عام 1781 بمقتل الشيخ ناصيف النصار، واسدال السّتار على شريط من الانتصارات المتلاحقة، ومحاولات الاتحاد والسيادة والاستقلال عن سلطات الاحتلال العثمانية، «فبنهاية الشيخ ظاهر العمر في اواخر آب عام 1775، استولى الاميرال العثماني حسن باشا على عكا وحكمها بنفسه... وعين الاميرال والياً على صيدا محمد ملك باشا، الذي حاول ان يجمع الميري المفروض على جبل عامل، لكن مشايخ هذه البلاد امتنعوا عن اعطائه سوى ما كانوا يدفعونه سابقا، وهو اقل بكثير مما طلب منهم... وفي الثامن عشر من كانون الاول عام 1775 نقل محمد ملك باشا الى ولاية مرعش، وحضر بعد ذلك بيومين فرمان بترقية الجزار الى رتبة بيلر بك ولاية صيدا (اي باشا بذيلين)، وبدلا من ان يحضر ليقيم في مدينة صيدا، ارسل اليها متسلما من قبله، في حين بقي هو في عكا وجعلها مركزا للولاية.... وما لبث ان رقي الجزار الى رتبة الذّيل الثالث، وامتلأت خزائنه بالمال، وأمّن القوة العسكرية اللازمة لفرض هيبته على رعاياه، فلم يبق امامه سوى همّ واحد وهو التخلص من ابناء الشيخ ظاهر العمر... وبعد ان جرّد الجزار الشيخ علي الظاهر من مساندة اخوته، سعى الى كسب مشايخ جبل عامل، نظرا لما يتمتع به هؤلاء من قدرة قتالية، فانتقل الى مدينة صور واجتمع الى حاكمها حمد العبّاس، ثم حضر اليها ثانية، واجتمع مع الشيخ ناصيف النصّار، ويبدو انه قد تصالح مع العامليين في هذه الاجتماعات.«...

ولكن فترة مهادنة الجزّار لم تطل، فهو اعتمد على ما يبدو خطة ينفذها على مراحل للتخلّص من زعماء فلسطين وجبل عامل الاقوياء، ونجح في فصل ابناء ظاهر العمر عن شقيقهم الشيخ علي الظاهر، ثم فتك بهم تباعا. «وحين رأى العامليون ما حلّ بأبناء ظاهر العمر، توقعوا ان تكون الحملة التالية على بلادهم، فانسحبوا اليها وحشدوا حصونهم بالمقاتلين والاسلحة واستعدّوا للقتال. وبالفعل فقد صدق حدسهم، فما لبث القبطان حسن باشا ان قرر الاستفادة من الرعب الذي القاه جنوده وبحارته في بلاد الشام.

فاتفق مع والي صيدا بتجهيز حملة على جبل عامل، لتهديم قلاعه وحصونه وجمع الميري من ملتزميه، لكن مشايخ الجبل اتفقوا على تجنّب العاصفة القادمة، التي قد تتسبب في تدمير ونهب بلادهم والقضاء عليهم، فقرروا مفاوضة الاميرال العثماني، وخشية ان يصيبهم ما اصاب ابناء ظاهر العمر، اذا حضروا لعكا للتباحث حول شروط الصلح، تطوّع الشيخ قبلان للقيام بهذه المهمة، فقدم الى عكا بالنيابة عن باقي المشايخ ونجح مسعاه في الوصول الى الاتفاق.«
وقبل الاميرال العثماني بالاتفاق المشار اليه والذي يقضي بأن «يقف زعماء جبل عامل على الحياد بين المتنازعين على النفوذ في المنطقة، وبأن يدفعوا الميري بصورة منتظمة وتقسيط المتأخر منها...». وبذلك «حفظ الاميرال العثماني ماء وجهه، لأنه كان يخشى مهاجمة جبل عامل، نظرا لانتشار القلاع والحصون في ربوعه، وما عرف عن سكانه من شجاعة وفروسية ومهارة في القتال، وتعلّق بالحرية. وفكّر بأنه قد يلاقي نجاحا اكثر مع امراء ومشايخ جبل الدروز، وطلب من زعماء عاملة الاشتراك بقواتهم في تلك الحملة، لكن هؤلاء اعتذروا لأنهم «وجدوا ان مصلحتهم تقضي بأن يبقى جبل الدروز متمردا على الوالي، فخضوع وولاء هذه البلاد للسلطة (جبل الدروز)، سوف يؤدي بهم الى العودة لحياة الكر والفر، التي كانت سائدة قبلا في النصف الاول من القرن الثامن عشر بين جبل الدروز وجبل عامل، حين كان ولاة صيدا يحرّضون الامير الشهابي الحاكم للزحف على قرى عاملة، كلما امتنع سكانها عن تلبية طلبات الباشا الابتزازية...». ثم ان زعماء عاملة «كانوا على ثقة تامة ان نجاح حملة الباشاوات على جبل الدروز، وارتفاع هيبة والي صيدا، سوف تدفعه الى اجتياح جبل عامل، وفرض سيطرته على هذه المنطقة... ويبدو ان الباشاوات قد قبلوا هذا الموقف السلبي من المشايخ العامليين، ولم يلحوا عليهم في طلب المساعدة، كما ان يحاولوا تأديبهم على تصرفهم هذا، بانتظار فرصة انسب، وذلك لاضطرارهم الى نقل الجانب الاكبر من القوات الزاحفة على جبل الدروز عبر بلاد عاملة، ومن الضروري عدم عرقلة سيرها او التصدي لها في تلك البلاد الوعرة.«...
صدور «الفرمان« بتأديب جبل عامل
وبعد القضاء على ابناء ظاهر العمر وإخضاع الامير يوسف شهاب، جاء دور جبل عامل الذي استعصى على الولاة من قبل، وعارض السلطنة، «وشهدت الفترة الممتدة من العام 1776 والعام 1781 سلسلة من الفتن الداخلية في جبل الدروز، استفاد منها مشايخ جبل عامل، فامتنعوا عن دفع الميري المتوجبة على بلادهم، وتعدّوا على القوافل التجارية التي كانت تجتازها من صيدا في طريقها الى فلسطين وبالعكس، فصدر فرمان سلطاني الى والي صيدا يأمره بالسير على جبل عامل وتدميره.«
واما الاسباب التي اوجبت صدور هذا الفرمان المنتظر، فكانت» :
1ـ تمرد زعماء عاملة ايام ظاهر العمر (تعـاونهم مع علي بك الكبير ومحمد بك ابو الذهب)، ومشاركتهم في الحملات على والي دمشق (دورهم في هزيمة عثمان باشا الكرجي على جسر بنات يعقوب.(
2ـ غزواتهم على منطقة دمشق، اذ هاجموها بقوة مؤلفة 300 الى500 خيّال.
3ـ امتناعهم عن دفع الميري بالرغم من تعهدهم السابق بدفعها سنويا.
4ـ الاستيلاء سابقا على اماكن متعددة من ولاية صيدا، مثل شفا عمر وحيفا وعكا.«
ورأى الجزّار في فرمان السلطان بالسيطرة على جبل عامل فرصة لإقامة حكم مركزي قوي في ولايته، الامر الذي يوجب إلغاء مراكز القوى المستقلة والحكم الذاتي في المناطق التابعة لها، فقرر تنفيذ الاوامر السلطانية بإخضاع زعماء عاملة لتحقيق طموحه المشار اليه، فضلا عن تحقيق المكاسب المادية من خلال السيطرة على البلاد تلك، الغنية بمواردها الزراعية، واحتكار تجارتها والاستيلاء على ثروات وكنوز مشايخها، «ونظرا لما يعلمه عن مدى شجاعة وكفاءة السكان القتالية، ووعورة البلاد وما تتضمنه من حصون وقلاع، قرر تجهيز حملة قوية قادرة على تحقيق آماله، فجمع قوة تقدّر بحوالى الثلاثة آلاف رجل، وجعلها بقيادة معاونه سليم، نظرا لأن الباشا لا يعرّض حياته في مغامرة خطرة غير مأمونة العواقب. وفوجئ الشيخ ناصيف باجتياح قوات الجزّار لبلاده، فخرج على رأس ألف فارس للتصدي للحملة، والتقى بالعساكر المهاجمة عند قرية يارون الداخلة ضمن بلاد بشارة، وجرى اقتتال بين الفريقين في 23 أيلول عام 1781، انتهى بمقتل الشيخ العاملي وحوالى ثلاثمائة الى اربعمائة من مقاتليه، من بينهم اخوه الفارس احمد وعدد من القادة، في حين خسر سليم باشا ثلث قواته، ثم تقدّم الاخير بعساكره في بلاد بشارة لتحطيم القلاع السبع الرئيسية فيها، وهي: هونين وتبنين ويارون وميس وصربا وجباع وشمع، واستولت العساكر على ميناء صور، وخشي مشايخ جبل عامل ان يتعرضوا للذبح والقتل والإهانة عند توغّل قوات الجزار في بلادهم، ففروا بعيالهم وانصارهم، واختفى بعضهم في بلاد بعلبك لدى مشايخ آل الحرفوش، والبعض الآخر في بلاد عكار لدى محمد بك المرعبي (الاسعد)، وقدم اثنان منهم الطاعة للجزار، في حين صمد الشيخ حيدر الفارس برجاله الستمائة في قلعة الشقيف، وفشلت جميع جهود الجند لاحتلال تلك القلعة... وعادت قوات الباشا

وهي تحمل معها ثروات هائلة، جمعوها من مقتنيات مشايخ وسكان جبل عامل.. وسبى الجند النساء والاطفال وباعوهم في الاسواق للراغبين في الشراء. كما نقلوا كميات كبيرة من مؤلفات ومخطوطات نادرة، كان قد وضعها علماء تلك البلاد، الذين غادروها عقب تعرّضها للاحتلال، وتوجهوا الى البلاد الاسلامية النائية كالهند وايران وافغانستان، فقدموا بتعاليمهم خدمات جلى الى الاسلام والشيعة الإمامية. وكان فرح الجزار كبيرا بنجاح حملته، لأنه اخضع واستولى على منطقة استعصت على معظم ولاة صيدا.«...

وعن واقعة يارون التي خاضها الشيخ ناصيف، وكان قد خسر في مواقع سابقة اهم قادته وابطاله امثال شقيقه محمود النصار، وابن شقيقه قاسم المراد النصار، جاء ايضا: «استشهد ناصيف النصار نهار الاثنين خامس شوّال سنة 1195 هـ (1781 م)، والسبب في ذلك ان الجزار بعد استيلائه على فلسطين، وبعد الجرائم التي ارتكبها فيها تيقن ان زعماء عاملة وجبال الدروز، سوف يثأرون لإخوانهم ويأخذون الحيطة لأنفسهم وانهم يستفرصون الحوادث، لذلك اصبح منتهى همه امتلاك بلاد عاملة، لأن الدروز كفوه مؤونة انفسهم بسبب الفتن الداخلية التي كانت قائمة بينهم على قدم وساق، لذلك كان امرهم هيّنا، اضف الى ذلك انه، اذا ابتدأ بمحاربة الدروز، سوف لا يتركهم العامليون، لأنهم عالمون بالنتيجة، والدروز، والدروز على العكس، لأن الخلاف الذي بينهم يمنعهم من معاونة الجيران». من هنا «جعل الجزار يفرغ جهده في امتلاك بلاد بشارة، وكان المتاولة متحصّنين في القلاع مستعدين للقتال، وهم ثلاث قبائل تحت رياسة ثلاث عائلات، وهم بنو علي الصغير، ومقدمهم الشيخ ناصيف النصار واخوته، وبنو منكر، فريق منهم مقدّمه الشيخ محمد الحسن وعشيرته، والآخر مقدمه الشيخ حيدر الفارس، وكان عندهم ابطال لا تطاق في الحروب، وكان قد جرى بينهم وبين الجزار وقائع كثيرة ولم يظفر منهم بطائل، فجهز لهم في هذه المرة عسكرا عظيما، وساقه عليهم بغتة، وعندما قارب حدود البلاد، جاء النذير الى قلعة تبنين، فخفّ الشيخ ناصيف الى المقاومة بمن معه داخل القلعة، وهم سبعمئة فارس لا غير، من دون ان ينتظر اجتماع بقية القوات المرابطة في بقية القلاع، فالتقى بعساكر الجزارة قرب قرية يارون الداخلة ضمن بلاد بشارة، فاقتتلوا قتالا شديدا، كاد ان يأتي على الجميع ويفني الفريقين، وكان ناصيف يباشر الحرب بنفسه... وعندما حمل على فارس كان يبارزه في المعركة واذا بفارس آخر زنجي اطلق عليه الرمح فأصابه بجرح، فثبت له وانثنى كارّا عليه، وضربه بالسيف فقتله، وبينما هو كذلك واذا بثلاثة فوارس آخرين قد هجموا عليه، فأراد ان يلوي عنان جواده نحوهم، فزلّت نعال الجواد على بلاطة، فسقط هو والجواد، فحمل عليه اولئك الثلاثة، واطلق احدهم الطبنجا فأصابته، وطعنه الآخر في صدره، فغودر عند ذلك قتيلا، وقضي الامر بين الفريقين، وحمل ودفن الى جانب قرية يارون، ولم يزل الناس يتبرّكون بقبره وبزيارته، كما يتبركون بزيارة الشهداء.«...

عيّن الجزار عساكر من العامليين انفسهم، ومع ذلك لم يجده ذلك نفعاً، لأنهم حين كانوا يحضرون للبحث عن المشايخ العصاة، يكون هؤلاء قد انتقلوا الى مناطق اخرى وعرة او الى اطراف البلاد، في حين يكون جنود الجزار في اوّلها، واشار الى ذلك المؤرخ ابراهيم العودة بقوله: «وقد عانت بلاد عاملة كثيراً من هجمات اولئك «الطياح»، لانها وقعت بين نارين، نار متسلمي الجزار وجنوده، ونار الثوار. فكان الباشا يرسل متسلميه وجنوده السردلة لملاحقة العصاة، فيعيثون في البلاد فساداً ويضيقون على السكان، ويغير الثوار على القرى فيسلبون وينهبون ويحرقون ما يصادفهم من امتعة، ومن ثمّ يفرّون في بطون الاودية او يعتصمون في قمم الجبال. وكان الاهالي يدفعون الميري والذخائر للمتسلمين والعساكر السردلة (وجاء ايضا السرولي) الذين كانوا يدّعون بأنهم يحافظون عليهم من التعديات، هذا الى جانب ما كانت تعانيه البلاد التي يمرّ بها هؤلاء من اعمال السخرة ومصادرة الغلال والمواشي والدواب. كما كانوا يدفعون الميري والذخائر للمشايخ (الثوار) واتباعهم، بحجة ان البلاد بلادهم.«...
وفي العام 1784، صدرت اوامر الآستانة الى الجزار «بتجهيز حملة لتدمير دولة المماليك في مصر... وفي الوقت نفسه الذي تلقى فيه تلك الاوامر، وصلته رسائل من المماليك ينذرونه فيها، بتنفيذ تعهداته والتمرّد معهم ضد السلطان العثماني. لكن الجزار تمكن من التخلّص من هذا المأزق، بايهام كلا الطرفين بحدوث تطورات في ولايته، تستدعي عدم مغادرته لها، فسعى الى اثارة حرب اهلية في جبل الدروز، عن طريق التفرقة بين ذوي النفوذ فيها، او التلويح للطموحين في الاسرة الشهابية بمنصب الامير الحاكم، او عن طريق اثارة الكراهية والعداء في ما بينهم بمختلف السبل والوسائل... ونجح الجزار باثارة العداء بين ملتزم جبل الدروز الامير يوسف الشهابي وخاله الامير اسماعيل الشهابي متسلم مقاطعتي مرجعيون وحاصبيا التابعتين لادارة ولاية دمشق، وامدّ الامير الاخير بقوات من عنده، اقامت معسكراً لها في جزين، لكنها هزمت في جباع... ففرض حصاراً اقتصاديا على جبل الدروز، الذي لا ينتج من الحبوب الغذائية ما يكفي حاجة سكانه، لعلّه يتمكن عن طريق التجويع تحقيق ما عجز عنه عسكرياً اي بتأليب جميع رعايا الجبل على اميرهم حين يشعرون بالجوع، وبالتالي الضغط عليه لقبول شروط الباشا. ولم يكتب لهذه السياسة النجاح، مما دفع الباشا في الاول من حزيران 1784 الى تسيير قواته ورجال الامير اسماعيل نحو جبل الدروز، وما كادت تلك العساكر تتوغل وتقيم لها معسكراً، حتى جاءها امر بالانسحاب فوراً، وسيّرها الباشا الى جبل عامل الذي ازداد فيه نشاط الثوار. فقد استغلّ «الطياح» انغماس الجزار في القتال الدائر بين امراء آل شهاب في الشوف، وسحبه اعدادا كبيرة من قواته المتواجدة في بلاد عاملة لمساندة حليفيه الاميرين الشهابيين اسماعيل وسيّد احمد، فزادوا من غاراتهم وهجماتهم على القوات القليلة المتبقية في بلادهم، وتشجع فتيانهم الذين فرّوا الى دمشق فحضر حوالى ستماية فارس منهم، وشكّلوا مع «الطياح» قوة مهاجمة، انضم اليها حوالى الف من فلاحي جبل عامل. وشجعهم الامير يوسف الشهابي وتحالف معهم، وسهّل امدادهم بالسلاح والمؤن والمقاتلين. وتقدّم الشيخ عقيل ناصيف النصّار ومعاونه مرعي فدوني، بهذه القوة في الجبال المؤدية الى قلعة تبنين، وكان هدفه استخراج الثروة التي كان قد تركها والده مطمورة تحت شجرة في الحصن، وكانت قد فشلت جميع جهود الجزار للعثور عليها. وفوجئ الشيخ الشاب بوجود قوة مسلحة من المغاربة، كان قد تركها الباشا في القلعة لحفظ الامن في البلاد المجاورة، فأفنى تلك القوة، ونقل الكنز الى مكان امين. ولم يقتل من رجاله سوى اربعة، ثم غادر القلعة بعد ان ترك فيها حامية من رجاله، واحرق ونهب عدة قرى وتابع زحفه نحو عكا. واصيب الجزار بالهول حين ترامى اليه، النصر الذي احرزته قوات «الطياح» في تبنين، وخشي من انتفاضة سكان جبل عامل والتفافهم حول الشيخ الشاب، مما قد يؤدي الى استقلالهم وتعرّض قواته للفناء، نظرا للتحالف القائم بين العامليين وامير جبل الدروز، وما يلي ذلك من قطع الامدادات عن عساكره التي تقاتل في الشوف. فقرّر اخماد الفتنة في مهدها، والحيلولة دون ازدياد نفوذ متمردي جبل عامل بين ابناء ملتهم، وبالتالي تدهور مكانته بين رعاياه«...

إنتقام الجزار من «ثوار» جبل عامل

وفي الاول من حزيران عام 1784«اصدر الجزار امرا الى القوات التي كان قد سيّرها في ذلك اليوم لاجتياح جبل الدروز، بالانسحاب وارسلها من جديد الى جبل عامل. واضطر الامير اسماعيل الشهابي العودة باتباعه الى صيدا، وقصف الباشا اربعة قرى عاملية ودمّرها تدميرا كاملا، كما تمكّنت قواته من الانتصار على «الطياح». وفي الثاني من حزيران عرض الباشا رؤوس القتلى المتمرّدين خارج ابواب المدينة، كما امر بخوزقة احد الزعماء العامليين، وذلك لاثارة الرعب والخوف لدى سكان الولاية، فلا يجرؤ احد على مخالفة اوامره لان ذلك سوف يكون مصير كل متمرّد، ولترهيب انصار الامير يوسف فيتخلون عن نصرته.«

حمزة النصّار يقود الثورة

وفي تفاصيل اخرى عن تلك الاحداث، انه في العام 1783 (1198هـ)، «وقعت حرب عظيمة بين الجزار والامير

يوسف الشهابي، وكان العامليون يقاسون الضغط، وكان الزعماء مشرّدين يتحيّنون الفرص، ولما تسامعوا بذلك جاؤا الى الامير يوسف فأمدّهم بالخيل والسلاح وتوجهوا الى بلادهم. وفي هذه السنة جاء ذكر الشيخ علي الزين صاحب شحور فقام التاريخ العاملي يحدّثنا عنه بأنه قام في الامة العاملية رافعاً عقيرته وناداهم للقيام بواجبهم المقدّس وتولى بنفسه ادارة شؤون هذه الحركات، وزعّم الشيخ حمزة بن محمّد النصار من آل علي الصغير، وهو اخو عباس المحمد وعمّ حمد العباس المحمد، وضمّ اليه اولاد ناصيف، واقام الحرب على ساق، ففي يوم الاثنين 12 رجب سنة 1198 هـ 1783م، اعلنوا الثورة فتوجهت القوات الى تبنين فقتلوا المتسلم المقيم فيها من قبل الجزار وهرب الكاتب بالدفاتر وهو من بيت الايوب الى صيدا وفيها الجزار، فأرسل الجزار عسكراً الى شحور فوقعت الحرب فيها نهار الثلاثاء 13 رجب، وقتل من الشيعة مقتلة عظيمة كما في رواية مروة، وفي رواية الركيني قرب مئتي قتيل، واخذوا جملة اسرى ونهبوا البلد نهبة عظيمة وحملوا رؤوس القتلى الى صيدا. وفي يوم الواقعة فرّت الناس الى الجبال والاوعار خوفا من تنكيل الجزار، ثم قتل الشيخ حمزة شرّ قتلة وقتل معه جماعة من اكابر الشيعة كما قيل واطلقت الاسرى، وهرب الشيخ علي الزين مع اسرته واولاد ناصيف الى الشام واقاموا فيها، ثمّ ان الجزار اصبح والياً على الشام سنة 1199هـ (نحو العام 1784م) ففروا الى العراق، واقام اولاد ناصيف عند حمد الحمود شيخ الخزاعل واشتركوا معه في حرب دارت بينه وبين ثامر الحمود شيخ المنتفج واظهروا بها كل بسالة واقدام. واما الشيخ علي الزين فانه ذهب الى الهند واستوزر بها ونال رتبة عالية، ثمّ عاد الى بلاده بعد احتلال بريطانيا للهند.«

ونحو العام 1786 كان الجزار قد «اصبح سيّد سوريا الاوحد، تخضع لأمره البلاد الممتدة من اللاذقية شمالا الى غزة جنوبا ومن البحر المتوسط غربا الى بادية الشام شرقا، يحكم هذه البلاد الشاسعة بواسطة ضباط.«...

وكان «قد بدأ يسود التذمر والشكوى، لدى مشايخ واعيان القرى المجاورة لمدينة صور، والخاضعة لحكم ضبّاط الجزار، وصاروا ينتظرون الفرصة المناسبة للتخلّص من حكامهم، والعودة الى حياتهم السابقة لأسباب اوّلها: معاناتهم من ظلم هؤلاء المتسلّمين، والضيق الواقع عليهم لاضطرارهم الى دفع الميري والذخاير والمؤن مضاعفة للحكومة والطياح. وثانيها: انه لم يعد لهم املاك شاسعة يعتاشون منها، ولا يجيدون مهناً للعمل بها، ولا تعوّدوا ممارسة التجارة، ولا يمكنهم التسول، بل يفضلون الموت على ذلك. وثالثها: انهم يتحدّرون من طبقة اجتماعية اعتادت رفاهة العيش، وان تكون حاكمة لا محكومة.«...

الجزار يقمع إنتفاضات جبل عامل

ونحو العام 1785 كانت محاولة اخرى لاستعادة العامليين استقلالهم، فلما «شعر هؤلاء المشايخ ان انتقال الجزار من عكار الى دمشق، ومن ثم توجهه بالدورة الى منطقة نابلس، فرصتهم التي كانوا يتحيّنونها لاستعادة سيادتهم على قلاعهم ومقاطعاتهم السابقة، نظرا لتوزع قوات الجزار في ولايات صيدا وطرابلس ودمشق، واضطراره لاصطحاب اعداد وافرة منهم في الدورة... وعقدوا اجتماعات متعددة لهذا الغرض، تمّ فيها الاتفاق على الانقضاض على عمّال وجنود الوالي في جبالهم، وقرروا ان يستهلوا مخططهم بالهجوم على صور وذبح عساكر ومتسلّم الجزار فيها. ولكن سليم باشا (مملوك الجزار الذي عيّن واليا على صيدا) علم بالمؤامرة قبل تنفيذها، فأصدر امرا الى متسلم مدينة صور باعتقال المشايخ والاعيان المتآمرين وارسالهم الى عكا، وفي اليوم الرابع عشر من ايار 5871 نفّذ الباشا بهم عقوبة الاعدام، فخوزق اربعة وثلاثين منهم على ابواب المدينة، على مرأى من القنصل الفرنسي في عكا(REGNAULT) ، الذي كتب الى حكومته قائلا: «... لا يزالون حتى الآن ويشاع بأنهم سوف يستبدلون بعدد من ابناء وطنهم، الموقوفين كذلك والمتهمين بالتحالف مع المتمرّدين.«...

وفي هذه الاثناء توقّع احمد باشا الجزار حصول محاولة اخرى لانتزاع سيادة جبل عامل يقوم بها آل علي الصغير النازلين في مشغره، فلما «علم سيد سوريا بما حدث في صور وجوارها، وكان يستعد للخروج بقافلة الحج من دمشق الى مكة، وكانت جماعة من العامليين، من آل علي الصغير قد فرّت الى مشغرة، واقامت فيها باذن وحماية الامير يوسف الشهابي. فخشي ان يستغل هؤلاء فرصة غيابه، وتوزع قواته بين ولايات طرابلس وصيدا ودمشق، ومرافقة عدد من تلك العساكر لقافلة الحج الشامي، فيتوجه هؤلاء المشايخ الى جبل عامل بمساعدة الامير الشهابي الحاكم، للانتقام لما اصابهم على يد الباشا وقواته، فقرّر ان يزيل مخاوفه بالقضاء عليهم عن طريق الامير يوسف، والفرصة متاحة امامه الآن نظرا لوجود الشيخ سعد الخوري مربّي ومستشار الامير يوسف مرتهناً لديه (الى حين تسديد كامل المبلغ المقرّر مقابل التزام جبل الدروز ومقاطعتي حاصبيا ومرجعيون)، وبذلك سوف يجبر الامير الشهابي على تنفيذ ما يطلب منه، ولن يجرؤ مطلقاً على معارضته خشية تعرّض الشيخ سعد لأي اذى، كما يتمكن بذلك من تحقيق هدفين مهمين. في وقت واحد: ضرب التحالف العاملي الشهابي وزرع بذور الفتنة والانشقاق بينهما والحيلولة دون اتحادهما ثانية، والقضاء على آل الصغير اللاجئين في مشغرة دون ان يتكلف شيئا. وقبل خروج الجزار بقافلة الحج اصدر امرا الى الشيخ سعد الخوري، ان يكتب الى سيّده امير جبل الدروز بالقاء القبض على مضيفيه العامليين، وارسالهم الى والي صيدا سليم باشا. واستجاب الامير يوسف للامر، وسلّم العامليين الى عدوّهم (نحو سبعة عشر شيخا)، وقد اثار تصرّفه هذا استنكار المعاصرين، لانه يتنافى وتقاليد

المنطقة التي تحث على حماية اللاجئ والدفاع عنه، واشار الى ذلك المؤرخ حيدر الشهابي بقوله: «... لم يحفظ الجوار ويرعى الذمام... ولام الناس الامير يوسف على ذلك.«...

اعداد: انطوان شعبان – 12

لم ينم العامليون على الضّيم بعد ذلك، لنيل استقلالهم وسيادتهم، «ولم تهدأ الاحوال بعد هلاك الطاغية الجزّار سنة 1804 (1219 هـ)، وتعيين سليم باشا، ثم سليمان باشا خلفاً له. فاتسعت حرب العصابات، وامتدت سلطة الثوار فشملت بلاد عكا وصفد، وكانوا يفرضون الضرائب والرسوم على البلاد، ويفتكون بمن يخالفهم. ورأى الوالي سليمان باشا، وكان سلس القيادة ليّن العريكة، ما اصاب جنده من الفشل، وما ألمّ بالبلاد من بؤس وشقاء، فأيقن انها سائرة الى الخراب التام حتما، فمال الى اللين، واستدعى الى عكا الشيخ علي الفارس عميد آل صعب، فأقامه حاكما عاما في قلعة تبنين، ولم يقبل الشيخ علي الفارس (وكان شيخاً محنّكا) ذلك المنصب الاّ بعد اتفاقه مع زعماء الثوار على ان يسعى الى اجلاء جيش الاتراك والارناؤوط عن البلاد، وارجاع الحكم الى اهلها. وارسل الوالي سليمان باشا ضابطاً ألبانياً يدعى بكر آغا لمفاوضة الثوار والاتفاق معهم على شروط الصلح والتسليم، فرفضوا مفاوضته حذراً من الغدر والخديعة، فكتب سليمان باشا الى الامير بشير الشهابي الثاني يطلب وساطته لاخماد نار الثورة، واقناع الثوار بالكف عن العدوان، على ان تستجاب مطالبهم. واثر تدخل الامير الشهابي مع الزعماء، قبلوا ان يغمدوا سيوفهم ويسكنوا حركاتهم ويدخلوا في مفاوضة مع الوالي سليمان باشا. ثم عقدوا اجتماعا في حضرة الامير بشير في بيت الدين، حضره الشيخ فارس الناصيف وذوو قرابته، واقروا فيه الخطة التي يجب ان يسار عليها.

وتولى «كاخية» او معتمد الامير الشهابي الشيخ جرجس باز والحاج حسن الشيت «كاخية الشيخ فارس الناصيف ادارة المفاوضة بين الوالي والثوار. واقرّ الوالي سليمان باشا وراغب افندي معتمد الباب العالي شروط الصلح واخماد الثورة على الوجه الآتي :

اولا: العفو العام عن عموم الثائرين

ثانيا: يعطى لهم اقليم الشومر ملكاً لهم ولذرّيتهم مقسوما بالتساوي بدلا عن املاكهم التي ضبطتها الدولة (وكانت بعد معركة يارون قد ضبطت الدولة املاك العشائر، وكانت كثيرة، منها جفتلك رأس العين وقسم كبير من بساتين صيدا وابنية كثيرة ومطاحن وبساتين من الزيتون لا تحصى) على ان يستثنى من الاقليم قرى: الصرفند وانصار وقلعة ميس، مرفوعة القدم ممنوعة القلم (اي معفاة من الضرائب والاموال الاميرية) من دون معارض ولا منازع، كما ذكر في «البيولريدي» اي المنشور الرسمي.

ثالثاً: ألا يكون دخل في حكم البلاد، ولا سلطة لموظفي الدولة عليهم. وانما يرجعون في امورهم وفصل الخلاف الذي يقع بينهم الى شيخ المشايخ، فارس الناصيف. فهو يمثلهم تجاه الحكومة، وبه تنحصر المخابرات، وعليه تعود المسؤولية.

اتفاق الصلح في عكا

وعن وصول وفد العشائر برئاسة الشيخ فارس الناصيف الى عكا لتوقيع الاتفاق، جاء في تاريخ ابرهيم العورا الذي نشره وصححه الخوري قسطنطين الباشا ان «الوالي اجلس الشيخ فارس عن يمينه، وقدم له الشبق والقهوة (والشبق هو قصبة طويلة فيها غليون لشرب التبغ، لها فم من الكهرباء)، وكانت قواعد التشريفات يومئذ لا تجيز تقديم الشبق، الا لكبار الزعماء.

وانزل وفد العشائر في دار رحبة ضرب على ظهرها «صيوان» اي قبة كبيرة لرئيس الوفد، وارسلت لهم الموائد ولخيولهم العلايف. وبعد ثلاثة ايام عقد مجلس حافل حضره المفتي والقاضي وكبار القواد. وطيب الوالي خاطر الوفد، واثنى على طاعتهم، ووقع الاتفاق، وارسل مع «جفت تتار»، اثنين من سعاة البريد الى الاستانة، فصادق عليه الباب العالي، وصدر به «البيولريدي» الرسمي، واحتفل بتلاوته احتفالا جامعا. ثم انفض الجمع واكرم الوالي سليمان باشا الشيخ فارس بخمسة آلاف غرش (اي ما يعادل خمسين الف غرش ذهبا) وفروة من السمور تشعر بانه شيخ المشايخ.

وانعم على بقية الوفد بأفرية السمور والعطايا.«

وجاء ايضا: «ان الوالي سليمان باشا امر باتخاذ قرية الزرارية مقرا لشيخ المشايخ. وبنيت فيها دار لرئاسة العشائر على نفقة الدولة. وعيّن لبيت الرئاسة مائتي كيس (الف جنيه) تدفع في كل سنة من خزينة عكا وذخائر مرجعيون.

وذكر مؤرخون ايضا «ان هذه الاتفاقية تعدّلت في عهد عبدالله باشا الخزندار والي ايالة عكا الذي خلف سليمان باشا. ففي سنة 1821 (1237هـ) عقد عبدالله باشا اتفاقا مع زعماء جبل عامل، واعاد لهم حكم بلادهم كما كانوا سابقا. وضم اليهم مقاطعة مرج العيون، وكانت تتبع وادي التيم، وترك لهم خمسين الف غرش من اموالها الاميرية، ورتّب لهم ماية غرارة شعير علائف لخيولهم، على ان يمدوه بألفي مقاتل عند الطلب.

ولما اشتد الخلاف بينه وبين درويش باشا والي الشام، خاضوا الحرب معه في معركة المزّة، ومعركة جسر بنات يعقوب وابلوا بلاء حسنا. وقتل في احدى المعارك الشيخ احمد العبّاس من آل علي الصغير، ودفن في المزّة.«

وعزا مؤرخون اتفاق عبدالله باشا مع العشائر الى تمرده على سلطات الآستانة، وتاليا سعيه الى مواجهة الخطر الذي يهدد حكمه، عن طريق تكتيل العصبيات المحلية في المنطقة الى جانبه. «ونظرا لمعرفته الاكيدة بالقدرات القتالية التي يتمتع بها المشايخ العامليون، سعى الى التقرب منهم، فأرسل الى الشيخ فارس الناصيف النصّار يبلغه برغبته رفع المتسلمين المعيّنين من قبله في اقليمي الشومر والشقيف، واعادتها لتكون بتصرف المشايخ كما كانت سابقا في يد آبائهم.«..

وجاء ايضا عن احداث تلك الفترة التي تلت وفاة الجزار، انه «في العام 1219هـ (نحو 1804م)، توفي الجزار في عكا وتولى بعده غيره، وبعد برهة يسيرة تولى مكانه سليمان باشا، وارسلت الدولة راغب افندي ناظر الخارجية بالدونما الهمايونية (الاسطول الحربي) ليشترك مع الوالي في اصلاح ما افسده الجزار، فاستدعيا فارس الناصيف ابن الشيخ ناصيف النصار وابن عمه محمد البك ابن الشيخ محمود النصار المعروف بأبي حمد، واظهروا لهما الاكرام والعناية والرعاية فاطمأنا لهما وطلبا منهما اعادة البلاد الى المشايخ كما كانت في عهدها الاول لانهم توارثوها سالفاً عن سالف، ومدّنوها واوجدوا فيها المشاريع الحيوية كالقلاع والحصون والمرابط والقناطر والمعابد والنباتات والاسواق والآبار والمطاحن والاغراس، ومنها جفتلك رأس العين وقسم كبير من بساتين صيدا، فأجابهما بعدم امكان ذلك بعد ادخاله في واردات الخزينة منذ خمسة عشر عاما. ثم تمّ الاتفاق على اعطائهم مقاطعة اقليم الشومر برمته عوضا عن املاكهم المغصوبة المتفرقة في سائر البلاد، واجريا «ترقين» (اي اخراج قيود) هذه المقاطعة من دفاتر الخزينة ووزعت الضريبة الموضوعة عليها من اموال وذخائر على باقي المقاطعات، واعطيا بها المراسيم العالية التي من جملتها انها مرفوعة القدم ممنوعة القلم - يعني ليس عليها شيء من الضرائب بالكلية ـ ثم عيّنا لبيت الرئاسة مئتي كيس سنويا تدفع للرئيس من خزانة عكا، وتدفع له ذخائر مرجعيون في كل سنة ايضا، ثم ان سليمان باشا سأل عن المحل المناسب للرئيس فأجيب بعد الحص ان قرية الزرارية هي انسب الاماكن موقعا واحسنها هواء، فأعطيت للرئيس برمتها، ثم امر البنائين، فشيّدوا البنايات المناسبة للعيال والاضياف والحكم، وبنيت على نفقة الدولة، ثم انتقل فارس الناصيف ومحمد البك المحمود اليها، وجمعا آل علي الصغير وآل ابي صعب وآل منكر، وقسمت قرى اقليم الشومر ومزارعه بينهم، كل بحسبه، واصاب بيت الرياسة منها سهم وافر، والرياسة كانت بيد الكبير من البيت الذي يتولى الرياسة من آل علي الصغير، وانما يتولاها من قبل الوالي، وكان الكبير فارس الناصيف، واستدام الوضع على ذلك الى ان فتح ابراهيم باشا المصري ابن محمد علي باشا الديار الشامية، وقد توطدت العلائق بين الدولة وبين زعماء عاملة في هذا العهد، واشتركوا مع الوالي في حروبه، واهتموا في عمران البلاد، فتقدمت تقدما باهرا.«...

لم يتفق المؤرخون على ما يبدو، على اسم الوالي الذي اعاد مقاطعة الشومر وبلاد الشقيف الى آل علي الصغير، ولكنهم اشاروا الى انها اعيدت اليهم، كما لوحظ ايضا اختلاف المؤرخين حول تاريخ اعادتها، فمنهم من تحدث عن حصول ذلك اثر نهاية الجزار مباشرة، ومنهم من حدد ذلك، بعد مرور نحو خمس عشرة سنة، اي على عهد عبدالله باشا، كما مرّ، وجاء ايضا في التفاصيل ان زعماء عاملة لم يقبلوا بادىء الامر بشروط والي عكا عبدالله باشا «فاستعفوا من ذلك وكان غرضهم استشارة الامير بشير الشهابي، فأجابهم ان الوزير قد خاصم دولة والي الشام خصاما طويلا، واحتياجه اليكم يطول، فأرسل الشيخ فارس الناصيف معتمده الحاج حسن شيت الى عكا وطلب من عبدالله باشا ان يفعل ما اراد ويعاهدهم ان لا يغدر بهم بعد ذلك، فكتب لهم صكا بذلك وارسل اليهم الخلع، كما كانت عادة آبائهم من قديم الزمان، وطفقوا يتحكمون في اتخاذ الاعوان والخيل والسلاح، ووافق ذلك خاطر الوزير، فأضاف اليهم ولاية مرجعيون ـ وكانت قبل ذلك تضاف الى حكم الشهابيين ـ وفرض عليهم مالا معلوما، كما كان على المتسلمين من قبلهم.«

ونحو العام 1281 (1237هـ) كان فارس ناصيف النصار «قائدا لجيوش عبدالله باشا محافظ عكا، ووالي صيدا، عندما جرت المحاربة بينه وبين العسكر الشامي على الجسر الذي في عبر الاردن (جسر بنات يعقوب). وقد لقب فارس الناصيف رسميا على عهد عبدالله باشا والي ايالة صيدا، برئيس العشائر من طرف الباب العالي، وقد اشترك هو وابن عمه محمد البك بالتفاهم مع العثمانيين.«

جبل عامل في عهد الاحتلال المصري

وفي العام 1832 (1247هـ)، احتل المصريون سوريا، وقاومهم العامليون في «واقعة البهجة»، لكنهم فشلوا في احراز النصر عليهم، فضبط المصريون «املاك مناوئيهم من الزعماء، وعهدوا الى الامير بشير الشهابي في حماية المدن السورية، فوضع متسلمين من قبله في صيدا وصور.«...

ولما عقد الصلح بين السلطان العثماني والخديوي المصري محمد علي باشا، رفعت سلطة الشهابيين عن جبل عامل نحو العام 1832، وتمّ جمع سلاحه، وذاقت بلاد بشارة في تلك الحقبة، الظلم والتعسّف، والقي الكثير من ابنائها في السجون، وذلك بسبب تحالف العامليين مع عبدالله باشا ضد الجيش المصري، وخلافهم السابق مع امراء جبل الدروز، «فكانت الضرائب تفرض مضاعفة والسخرة تنفذ بكل قسوة ولا قانون الا الرصاص والسيّاط، ولما اشتد الضغط قامت الثورات ولكنها لم تجد شيئاً، فقد وضعت الضرائب ونفذت الاحكام وجمع الجند للنظام بدون قرعة ولا نظام حتى خربت البلاد.«

وفي تلك الفترة الانتقالية خلال حكم المصريين، «كان حمد البك، وهو اشـهر زعيم عاملي بعد عمه ناصيف النصار ونجله فارس يرقب الحوادث ويتحين الفرص للانقضاض على المصريين.

اعداد انطوان شعبان- 15

ليتمكّن العثمانيون من تحقيق اغراضهم والقضاء على سلطة آل علي الصغير، عمدوا الى إثارة الصراع الزعامي في ما بينهم، اذ «كان بين علي بك الاسعد وابن عمه تامر بك الحسين خلاف قديم وتنافس على الزعامة الاولى، فأذكى نارها فؤاد باشا ومن خلفه من رجال الدولة على عادة الترك وقاعدتهم المعروفة فرّق تسد.... وكان تامر بك معروفا بالشجاعة والصراحة... وهو الزعيم الوحيد الذي نافس علي بك في زمن صولته، وزاحمه مزاحمة شديدة على رئاسة العشائر، وشهر عليه حربا عوانا، وكانت شجاعته تفوق تدبيره، فلم يكتب له الفوز». وفي العام 1862 غادر تامر بك البلاد «قاصدا مصر بطريق البر، ترافقه حاشية كبيرة، ونزل ضيفا على الحكومة المصرية، فأكرم سعيد باشا الاول خديوي مصر وفادته واحله محلا رفيعا، وامر بإعداد دار رحبة لنزوله والقيام بضيافته وعلائف خيوله، واهدى تامر بك للجناب الخديوي عدة افراس من جياد الخيل، واقام مدة في مصر مشمولا برعاية الخديوي، ثم عاد منها الى سوريا، وسار توّا الى الآستانة، ويقال ان الغاية التي كان يرمي اليها في رحلته الى مصر، هو طلب وساطة الخديوي لدى الباب العالي بمنحه حكومة جبل عامل ورئاسة العشائر كلها، وكان يرى نفسه أحق بالزعامة العامة من علي بك الاسعد، لأنه اكبر زعماء العشائر (من آل علي الصغير) سنا، ولأنها كانت لأبيه الشيخ حسين السلمان في عهد الحملة المصرية على سوريا في سنة 1832... وحلّ ضيفا في الاستانة على محمود نديم باشا الصدر الاعظم، وقدّم له هدايا ثمينة، منها سبحة من الجوهر، قوّمت بألف وخمسمئة ليرة ذهبية، وعاد من الاستانة، وقد انعمت عليه الدولة برتبة (ساردر كاه عالي) رئيس حجاب الحضرة العلية، وبراتب شهري مقداره خمس عشرة ليرة ذهبية، واعطي امرا بإبقائه مقاطعجيا اي صاحب مقاطعة، وقيل بحكومة جبل عامل كلها بدلا من علي بك الاسعد، فاتسعت مسافة الخلاف بينهما، واشتد النزاع، وثارت المعارك في سهول تبنين وسالت الدماء، وادرك علي بك خطورة الموقف وخشي مفاجأة الحوادث. وكان يعلم ان حكومة بيروت، وكانت مركز إيالة صيداء يومئذ، تشدّ عضد تامر بك سرا، فأرسل قبل نشوب الحرب جانبا من تحفه وامواله ورياش قصوره، فأودعها في أمانة الحاج درويش صاحب ميفدون، وسعى بعض الاعيان بإصلاح ذات البين بين الزعيمين فلم يفلحوا، فطلبوا من مشير الإيالة التدخل لإيقاف الحرب، فأوفد المشير احمد باشا الصلح، وكان يشغل مديرية سياسة العشائر ورئاسة الترجمة، مندوبا من قبله على رأس فرقة من الجند لحسم الخلاف، فوصل المندوب بالعساكر النظامية والحرب قائمة على قدم وساق، فخاض ساحة المعركة ودخل بين صفوف المحاربين تحت وابل من الرصاص، فأوقف رحى الحرب، واصلح بين الزعيمين، واصابت رصاصة جواده فقتل تحته، والى هذه المعركة يشير الشيخ ابو الحسن محمد جابر اليانوحي، في قصيدة له في مدح الصلح، مما جاء فيها:

»فسهل تبنين يوم اثير فيها -- عجاج النقع وارتفع الغبار

اتاها احمد بالصلح يسعى -- ورايات الصلاح له شعار

على الامر اشار بكل حزم-- بحسم الحرب فاتّحدوا وساروا.«

{اعتقال علي ومحمد الاسعد{

غير ان هذا الوفاق بالطبع لم يكن لمصلحة المحتل، فراح يترقب فرصة سانحة لإبطال مفاعيله وزيادة الخرق في ما بين المتنازعين، وقد «بقيت الرئاسة العامة لعلي بك، واكتفى تامر بك بمقاطعته، ولم يدم هذا الاتفاق طويلا، وتجدد الخلاف سنة 1864، وفيها اصدر علي بك منشورا بصفته حاكم المقاطعة العام وشيخ مشائخ بلاد بشارة بعزل تامر بك من مقاطعتي هونين ومرجعيون، وتعيين محمد بك الاسعد مكانه، غير ان والي صيدا خورشيد باشا لم يصادق على هذا التعيين لأنه يخالف الخطة السياسية التي درج عليها من إضعاف سلطة علي بك، فجاء الى صيدا وحل ضيفا في دار آل الجوهري في البستان المعروف بالرابوطية شرقي المدينة»... ووصل علي بك وابن عمه محمد بك الى صيدا بطلب من الوالي للنظر في امر تامر بك، وكان علي بك المذكور: «اذا سار يواكبه خمسمئة فارس شاكي السلاح على خيول مطهمة قد تقلدوا السيوف المحلاة اغمادها بالذهب والفضة والقرابينات الضخمة الواسعة الفم وبأيديهم الرماح، ومن خلفه ستة جنائب من جياد الخيل العربية، وامامه علم خاص، وتضرب بين يديه النقارات، وهما طبلان صغيران، متلاصقان، يضعهما الفارس على عاتق جواده، يضرب عليهما على نغم خاص ولا يكون ذلك الا لكبار الزعماء الاقطاعيين... واصطفّت الخيول والفرسان على جانبي الطريق من الجادة الممتدة من اول شارع الجبانة، حتى بستان الرابوطية، ودار بين علي بك وبين الوالي حديث تامر بك، واعرب الوزير (خورشيد باشا) عن رغبته بإبقاء تامر بك على رأس مقاطعته احتراما لمقامه وكبر سنه، واجاب علي بك: انني حاكم المقاطعة العام والمسؤول عن ادارتها بمقتضى المراسيم السلطانية التي منحتها الدولة لأسلافي، وانني لا استعيد منشورا اصدرته لمصلحة المقاطعة، ولا اقبل بإعادة تامر بك حفظا لمعنوية حكومتي، والمسألة بين امرين: إما مصادقة صاحب الدولة (اي الوالي)، واما قبول استقالتي، فامتعض الوالي، ولم يعتد بسماع هذه الاقوال، واصر على إنفاذ امره، ولم يتزحزح علي بك عن موقفه، فزاد الوالي حنقا، وقبل استقالته، فنهض علي بك مودعا، وقال: انني اطرح مسؤولية ما يقع في البلاد من الطوارئ على عاتق صاحب الدولة، فارتاع الوالي لكلمات علي بك

وخشي سوء العاقبة، واغتنم بعض جلساء السوء هذه الفرصة للإيقاع بعلي بك واعربوا للوالي عن خطورة المسألة، وان علي بك خرج ساخطا، ومحمد بك خرج مهددا، وسيهاجمان بأعوانهما الثكنة العسكرية ومركز الحكومة، ورجالهما ابطال اشدّاء لا يهابون الموت، فأمر الوالي قائد الجند العام المرافق له ان يبتدع وسيلة لاعتقال الزعيمين وإرسالهما الى بيروت، فزارهما القائد وتلطّف بهما ودعاهما لشرب القهوة في مقر بالثكنة، ولم يدر في خلدهما ان الامر خديعة اغترارا بقوتهما وما لهما من النفوذ العظيم في البلاد، ولما شربا القهوة ابلغهما القائد امر الوالي بإبقائهما ضيفين عنده حتى ايابه من عكا. وفي الليل سير بهما الى بيروت تخفرهما قوة كبيرة من الجند النظامي. وقيل انهما انزلا سفينة حربية كانت راسية في ميناء صيدا فأقلتهما الى بيروت، وامر الوالي ببقائهما في بيروت طليقين الى ان ينتهي التحقيق في المضابط المقدمة من بعض الخونة الذين لبوا طلب الحكومة، فلفّقوا عليهما دعاوى باطلة.. ولبثا في بيروت اشهرا لا يسمح لهما بالرجوع الى بلادهما وفي خلال ذلك ألغى الباب العالي إيالة صيداء وضمّها الى ولاية الشام تحت اسم ولاية سوريا، وجعلت بيروت (سنجق) متصرفية تابعة للشام، وتعيّن لولاية سوريا شرواني زادة محمد رشدي باشا، وكان من رجال معية فؤاد باشا خلال وجوده في سوريا، وصديقا لعلي بك الاسعد منذ تلك الايام، فبسط علي بك للوالي الجديد قضيته وتحامل خورشيد باشا عليه لعداء قديم بينهما، فأحسن محمد رشدي باشا استقباله وطيّب خاطره ووعده بإعادته الى مقاطعته مكرّما.«

وفي تفاصيل اخرى «ان الوالي كان متوجها الى عكا، فاستطرق على صيداء وطلب مواجهة علي بك ومحمد بك فجاءا الى صيدا، وكان حديثهما في اليوم الاول في امور عادية، وفي اليوم الثاني جاء الوالي الى المحل الذي يقيم فيه علي بك، وفتح معه الحديث... ثم ان الوالي اشغل علي بك بالحديث ثم امرا مناديا ينادي في رجاله واتباعه بالرجوع فظن رجاله ان البك اذن لهم بالرجوع فرجعوا، ثم ابلغهما الامر بالبقاء، ثم امرهما بالسير الى مركز الإيالة، وارسل معهما اربعة من الشرطة، فسألاه عن الشرطة، فقال: هم خدام لسعادتكم ثم منعهما من العودة وبقيا طليقين ولم يسجنا مخافة الثورة، وبقيت الناس تترقب قدومهما وتستعدّ لاستقبالهما الى ان جرى عليهما ما جرى.. وان الوالي عندما خرج من صيدا متوجها الى عكا وانتهى الخبر الى تبنين تلقّاه شبيب باشا واخوه نجيب بك، ومعهما جمع من حشم ابيهم وكانا صغيرين، ودعياه الى مقرهما فأجاب ولبث في قلعة تبنين بضعة ايام، وكان معجبا بطيب الهواء وبداعة الفن والاتقان في البناء.. وكان معه جمع من الاعيان وكان غرضه الاول من مروره العثور على مستمسك يحتج به امام السلطة، ولكنه ندم على ما سبق منه، ولم يسعه تكذيب نفسه امام السلطة.«...

{استشهاد علي بك ومحمد بك في دمشق{

ويبدو ان والي سوريا الجديد محمد رشدي باشا «كان اكثر دهاء من خورشيد باشا ومخالفا له في اسلوب ادارته، ودعى علي بك ومحمد الى دمشق ووعدهما بإعطائهما الاوامر بإعادتهما للمقاطعة، فوافياها وقد داهمها الهواء الاصفر «الكوليرا» فلم يلبث الاول (علي بك) ان قضى نحبه في العام 5681 ودفن في مقام السيدة زينب ابنة امير المؤمنين، وتوفي الثاني (محمد بك) بعده بأربعة ايام ودفن في مقام السيدة رقية.. وقيل بل ماتا مسمومين.«

وذكر ان تامر بك، عندما اعتقل ابنا عمه «ادرك حقيقة مقاصد رجال الدولة فعرض على ابناء عمه مساعدته والقيام بثورة ضد السلطة فأبيا عليه ذلك حتى لا يزيد الخرق اتساعا.«

كما اشير الى محاولة اخرى للثورة، فجاء ان «سعد الدين بك الامين الزعيم المعروف من آل صعب جاء الى صيدا بأعوانه بقصد مهاجمة الثكنة العسكرية واستخلاص المعتقلين، فوصل بعد فوات الوقت وإرسالهما الى بيروت.«

وعن نهاية الزعيمين المذكورين في دمشق جاء ايضا «انهما نزلا في دور بعض الشيعة، وان الوالي كان في كل يوم يقول لهما لا تذهبا لنا معكم مخابرة، فإذا جاءا تشاغل الى ان وقع الوباء، فدعاهما هو او بعض رجال الدولة على مائدة، فمات علي بك، ثم اصدر الامر الى محمد بك في اليوم الثاني وامره بالإسراع لملافاة شؤون علي بك، فمات في اليوم الرابع.«

وقد رثى الزعيم العاملي علي بك شعراء كثيرون، ومما جاء في قصيدة العلاّمة الشيخ ابراهيم افندي الاحدب:

»وفي ربيع قضى من للأنام يرى --- ربيع فضل به يحيا الثنا العطر

به خواطر اهل المجد قد شغلت -- فقد الخطير له بين الورى خطر

وللشيخ عبدالله البلاغي، ابيات من الشعر نقشت على قطعة من الرخام، وضعت في الحائط فوق قبر علي بك الى جانب منبر حرم السيدة زينب، وهي:

»مضى رأس العشائر عامليّ -- امير من بني نصار اوحد

الى دار النعيم فحلّ فيها -- مقيما في ولاية آل احمد

عليه كلما همت الغوادي -- سحائب من رضى الرحمن سرمدْ

وقد ارخته لعلي سعد -- بجيرة زينب سعد ابن اسعد«

ومما قاله الشاعر الشيخ عباس القرشي في مدح علي بك:

»ابا السعود ان يفض ماء الندى -- فإنه من كفك اليمنى نبع

او يور في دجي الخطوب ثاقب -- فإنه من رأيك الواري سطع«

ومما قاله القرشي في رثائه:

»كنت فتى ما امه راغب -- فآب الا وهو مستحقب
ما مات من ظل له يا ابا -- السعود ذكر بعده طيب
لا سرّني بعدك دهري ولا -- استعذب في فيّ الذي يعذب
لو لم تمت لم ادر ان الندى -- بعدك من اهل الندى يذهب
ابعد علي لا وربك لم يطب -- لي العيش في الدنيا ولم يصف موردي
فإن كان غيري يكره الموت انني -- حبيب اليّ الموت بعد ابن اسعد«
وعندما اعتقل خورشيد باشا علي بك الاسعد في بيروت جاء في قصيدة للشيخ القرشي:
»تالله ما سجن السجان من رجل -- طلق اليدين كمسجون ببيروت
كان الارامل والايتام في سعة -- فأصبحت لم تجد من بعده قوتا
اهوى لقاك ابا السعود فكيف بي -- ما جئت الا ردّني البواب
ما كان عهدي يا ابن اسعد قبلها -- تنهى وتأمر دونك الحجاب«
{إلغاء سيادة جبل عامل{
وبعد وفاة علي بك الاسعد، حقق العثمانيون غايتهم المنشودة فطبّقوا الحكم المباشر على جبل عامل، «وقد فقدت البلاد خيرا كثيرا بفقد علي بك، فإنها خسرت بخسرانه شرفها وابهتها، وفقدت استقلالها الذاتي، وأدبها الغض، وفتوّتها الطموحة، ومدارسها العامرة، وجندية بنيها الوثّابة الفاتحة، واخيرا مات الاميران علي ومحمد، وتلبّس بالزعامة آخرون...
وكانت نهاية علي بك ومحمد بك منعطفا تاريخيا في حياة العائلة، وجبل عامل، فبموتهما «انتهت حياة جبل عامل المعنوية والعسكرية والسياسية والادبية، لأنها فقدت استقلالها... واقفلت المدارس وتعطلت نوادي الادب...
وقسّمت البلاد الى ثلاثة اقضية: قضاء صور، قضاء صيدا، وقضاء مرجعيون، وخضعت لنظام الجندية، ولتأدية الضرائب على النحو الذي تفرضه الدولة، سواء كانت عادلة او مجحفة، فقد اوجبوا على المزارع دفع عشر الحبوب عينا بجميع انواعها للدولة، ولم يزل الحال كذلك الى سنة 1300هـ (1882 م). وكانت الدولة العثمانية، بعد وفاة علي بك ومحمد بك، قسّمت الاراضي، فسجّلتها باسم من هي تحت يده، ووضعت ضريبة «الويركو»... وكانت قبل ذلك تعتبر خراجية (الارض المحياة التي فتحها المسلمون عنوة بأمر الإمام) وملكا للدولة، وكان السلطان يقبلها للزعماء بمبلغ يتفق عليه معهم، وكان هؤلاء يجبرون الناس على زرعها، او يزرعونها انفسهم بواسطة وكلائهم، وكان الاغنياء يتفقون مع اهل القرى على زراعة ما تحت ايديهم من الارض، فيقدمون لهم ثمن البقر التي يحرثون عليها والبذور، والفلاحون يقومون بالعمل، ويأخذ الاغنياء من الفلاحين حصة معلومة ويسمونهم شركاء.. وفي سنة 7031 هـ (1889م)، زادوا على الويركو بالماية ستة، وعلى الاعشار كذلك... وفي سنة 1311 هـ، و1312هـ (1893 و1894م) زادوا على المئة خمسين... وكانوا في ايام الحرب، يأخذون ثلث الدواب من البقر والماعز والغنم، لأجل ذبحها للعسكر، وكانوا ايضا يأخذون ثلث نواتج الارض من الحبوب.«..

اعداد انطوان شعبان – 16

حمد البك الأسعد انتفض على المصريين وقاتل ابراهيم باشا بالتعاون مع حفيد أخيه
انتصر في معارك عدة وأسر 420 جندياً مصرياً في وقعة الحبيس وسلمهم لعزت باشا

وفي هذا السياق، وفي فترة الترقب تلك، تراجعت موقع آل علي الصغير، فقدت حدث المؤرخ الركيني، فقال: «في هذه السنة (1832) رأينا نساء او عيال عباس العلي يتكففون الناس في ايام البيدر، والناس لا تعطيهم لقسوتهم عليهم».. وتحدّث السيد عباس ابن السيد حسين ابن السيد علي ابراهيم، «ان فلاناً اجتاز بحمد البك، وهو يحرث ارضه بيده، وزوجته الحاجة فلانة تعينه! فسلّم عليه، ثم قال له: كيف الحال يا شيخنا؟ فأجابه حمد البك بقوله: ما فيه حال يدوم«..
وفي الوقائع أيضاً انه «لما تغلّب ابراهيم باشا المصري على بلاد عاملة، خرج منها حمد البك وابن أخيه أسعد الى دمشق، واشترى داراً فيها واسكنها عائلته، وبالطبع ان علي بك (الأسعد) كان من جملة العائلة، والتحق هو (حمد البك) وابن أخيه بالجيوش العثمانية، وأظهر من ضروب الشجاعة والبسالة ما وردت اخباره الى العاصمة.. وقد شهدا حرب حمص، ونزب، وغيرهما، الى ان بلغا قونية، وهناك تغلب ابراهيم باشا على العساكر الشاهانية، وأسر رشيد باشا، واستقام أمره، وتمّ استيلاءه على الديار الشامية، وأقام حمد البك وابن اخيه اسعد بك في قصبة الزبداني من أعمال دمشق، هذا وأملاكهما مظبوطة.. وقد عرض عليهما ابراهيم باشا العود الى بلادهما وارجاع املاكهما بشرط الخضوع، وتوسط الأمير بشير في ذلك، فأبيا، وقبل خروجه من سوريا بثلاث سنين أرجع اليهما الأملاك دون الزعامة. وفي أثناء هذه المدة توفي أسعد البك ابن محمد البك ابن أبي حمد الشيخ محمود النصار.«
انتفاضة حمد البك على المصريين
ولم يطل الوقت كثيراً حتى تشكّل الظرف المناسب لانتفاضة حمد البك واسترجاع النفوذ في جبل عامل، وهو حمد بن محمود بن نصار الثاني الاول ابن أحمد، وكان يكنى «بأبي فدعم» جرياً على عادة العرب في الاكتناء، ولكنه لم يكن له ولد، ولذلك ورثه حفيد أخيه علي بك الاسعد»، وكان حمد ايضاً يعرف في زمانه بـ«حاكم الشرع والسيف، ولقد ذكره بعض ولاة الامور، فنعته بفيلسوف العرب». وجاء فيه انه «عالما فاضلاً، درس على العلاّمة القبيسي في مدرسة الكوثرية، واستعاد مجد أهل بيته بعد أن مال بهم الزمان، وزعزعتهم الاحداث، وكان شاعراً حسن الديباجة، واشهر قصائده السالفية«..
وفي العام 1840، كانت انتفاضة ابن النصار، عندما قرر العثمانيون اخراج ابراهيم باشا من سوريا بالتعاون مع الانكليز، «وعندما انتهى الخبر الى حمد البك رفع علم الثورة، فاجتمع له ثمانية آلاف مقاتل، فسيرها لقتال ابرهيم باشا، وقادها بنفسه وعلى حسابه، وكان معه علي بك الاسعد المحمد حفيد أخيه، فأصطدم بالأمير مجيد الشهابي عند جسر القاقعية وكان الشهابي ينوي الهجوم على جبل عامل الجنوبي فردّه على أعقابه، ثم سار بجنده الى حمص فانضمّ الى الجيوش العثمانية، وأظهر ضروباً من البسالة والتدبير، فاستدعاه عزت باشا قائد الجيش التركي العام وأثنى عليه، وعينه حاكماً عاماً على جبل عامل بلقب شيخ مشائخ بلاد بشارة وعهد اليه بمطاردة الجيش المصري في جنوب جبل عامل، فرجع حمد البك وجعل يطارد المصريين ويحطّم قواتهم، فاشتبك معهم في عدة معارك في رميش ووادي الحبيس وشفا عمرو، وكانت واقعة وادي الحبيس أهم تلك الوقائع، فانه اسر فيها من الجيش المصري أربعمئة وعشرين جندياً، ثم ارسلهم مع حفيد اخيه علي بك مع معداتهم واسلحتهم وذخائرهم فسلمهم علي بك الى عزت باشا الذي جاء بالدونما الهمايونية (الاسطول الحربي)، ثم ان حمد البك سار بقواته بعد واقعة وادي الحبيس من بلاد عكا حتى دخل صفد وأجلى من بها من المصريين، ووضع فيها متسلماً من قبله يقال له الشيخ حمد الغزي، وكان من اخصائه وتولى اطلاق المساجين الذين حشرهم المصريون في سجون عكا بنفسه، وهكذا فعل في طبريا والناصرة وشفا عمرو.. وبقي حمد البك يطارد قواتهم، ويقابل جيوشهم، ويتغلب عليهم في كل وقائعه، حتى اخرجهم من البلاد الشامية أجمع، وأعانه على ذلك خروج ابرهيم باشا الى مصر من طريق البر حتى هلك اكثر عسكره بدون حرب.. وبعد هذه الوقائع استقر الحكم لحمد البك على بلاد عاملة بتمامها وأقام في تبنين، وأعاد لها لياليها الزاهرة. وهنا اغدقت عليه الحكومة العثمانية بالهدايا والالقاب، فأهداه السلطان سيفاً مرصّع القبضة بالجواهر الكريمة، باسم الحضرة السلطانية، وأعطي لقب متسلم بلاد بشارة اولاً، ثم لقب شيخ المشايخ رسمياً، ثم اعطي رتبة عسكرية، وهي: رتبة استبل عامرة مديري.. وأهداه شاه ايران شالاً من الترم (الكشمير) الثمين، وطائراً من البزاة، وقصده الشعراء بالمدائح والتهاني من مختلف البلاد العربية، فأغدق عليهم الهبات، والصلات، وكان عصره اشبه بأيام سيف الدولة في حلب.«
وجاء أيضاً انه لما «استقرت البلاد على عهد حمد البك.. كان يحيط به ثلة من ارحامه كعلي بك الاسعد ومحمد بك الاسعد، وسلمان بك وثامر بك، وحسين بك السلمان الذي حكم في بنت جبيل سنة 1264هـ (1847م«..(
ومما جاء في قصيدة الشيخ حبيب الكاظمي في مدح حمد البك في تلك الفترة:

بشرت بالمزن ارواح النعامي --- فاجل بالكأس على ايدي الندامى
وطوى البشر الاماني اذا وطا --- حمد البك من الظهر السناما
لست بالآخذ عن مستحدث --- ولك السبق قديماً ودواما
واصطفاك الملك عيناً ويداً--- وحباك الله نصراً واحتساما
حيث ألفاك حساماً قاطعاً-- حادث الخطب فأهداك الحساما
خذ أبا فدعم مني غادة--- اسفرت عن غرّة الصبح اللثاما
دم وعش واسلم وصل واغنم وصل --- لا القنا جاف ولا السيف كهاما
لم يزل ذكرك يعلو كلما--- بشرت بالمزن أرواح النعامى«
أسباب الثورة على المصريين
ومهادنة الاتراك؟
وعن الأسباب التي حتّمت على العامليين الانضمام للأتراك: «أنه لم يكن لدسائس الانكليز تأثير في ثورة جبل عامل على المصريين، ولم تشب نارها الا بسوء ادارة هؤلاء الذين اوكلوها للامراء من آل شهاب علما بما بين البلدين (عامل ولبنان) من خلاف قديم.. وكانت سياسة المصريين في جبال بني عاملة، أو مع الشيعيين عموماً، غيرها في بقية البلدان التي شملها عدلهم وعمّ انحاء سوريا، ولم يظهر له اثر في بلاد الشيعة، التي صورها الشهابيون في عيون المصريين بلاداً ثائرة وشعباً متمرداً يجب ان يحكم بالشدة والبطش، فصبّوا عليها غضبهم، ونكلوا بالزعماء والاعيان، وزجوا معظمهم في أعماق السجون.. فقامت الثورات في جبل عامل، ودافع الشيعيون عن كرامتهم، وقاتلوا قتال المستميت، فمن ثورة حسين بك الشبيب ابن الشيخ علي الفارس من آل صعب، واخوه محمد علي بك عام 1836 التي دامت ثلاث سنوات، الى ثورة حمد البك التي تكللت بالنجاح«،
ومن هنا، وبعد اخطاء الشهابيين وما تركوا من اثر غير محمود في جبل عامل، بدّل العامليون خطتهم القديمة وتقاليدهم التاريخية التي درجوا عليها، من مناوأة حكّام الترك وعدم الاعتراف بسلطتهم واشتباكهم بحروب دامية مع ولاة عكا وصيدا ودمشق، فكان العامليون في جملة من عضدوا الدولة العثمانية وأجابوا طلب رجالها. فوقعوا العرائض ورفعوها للباب العالي ضد الشهابيين، ولهم عذرهم في ما صنعوه لما اصابهم في عهدهم من ضيم وجور.«
وفاة حمد البك ومراثيه
وفي العام 2581، «توفي حـمد الـبك، ودفن في مقام نبي الله يوشع بن نون، وكان ذلك، أما بوصية مـنه، واما باختيار حفيد أخيه علي بك الاسعد (ابو السعود)، وقد بني علي بك قبة على قبر يوشع، وقبة دونها على قبر حمد البك وانما صغرها اجلالاً لنبي الله يوشع.«

مراثي في حمد البك

مما جاء في قصيدة الشيخ ابراهيم صادق حفيد الشيخ ابرهيم يحيا الطيباوي شاعر ناصيف النصار، في هذه المناسبة:
»لقد عميت عين المفاخر اذ رأت --- عن الأفق أرخ بدرها حمد غابا
قف ايها الوافد بالباب الذي -- وقف الأملاك فيه حرسا
وان دخلت الباب فاقرأ حمداً --- حمداً ومدحاً في الصباح والمسا
فهو الذي مع يوشع قد جمعا -- بتربة حصبائها تقدّسا
وقد بنى ابو السعود فوقها --- بيتاً على قواعد المجد رسا
فطاول السبع الألى مذ أرخوا --- بيتاً على تقوى علي أسسا
ومن مراثيه، قصيدة للشيخ حبيب الكاظمي، مما جاء فيها :
»أملفع بالبيض من أكفانها --- ومناله بالبيض مجد أخضر
ما فارقتك البيض يا ابن محمّد --- كلا وبيض ثناك لا يتغيّر
يبكي الفرند وطالما أضحكته --- والحرب في موج العجاجة تمطر
وللشيخ الكاظمي قصيدة اخرى في رثاء الشيخ حمد، مما جاء فيها:
»قالوا قضى حمد العليا فقلت لهم -- الله اكبر فات الركب حاديها
نعى أبا فدعم الناعون فانسلبت --- قوى المعالي وقد جزت نواصيها
عجبت يا واحد الدنيا لواحدة --- لما حملت وقد سارت سواريها
مجرداً وسيوف الهند مغمدة --- وسائراً والمذاكي في مواقيها
ولقد رثاه ايضاً الشيخ ابرهيم صادق، ومما جاءفي قصيدته:
حملوك ميتاً والدموع طليقة -- وفؤاد كل شج عليك مقيد

والحوار تبسم في لقائك بهجة -- والدهر مغبر المحيا أنكد
وزهت بقربك روضة قدسية --- لك في ثراها عند يوشع مرقد
من في ثغور المسلمين مرابط -- رصداً وانت بها الرصيد المرصد
من للرعية سائس من للشريعة --- حارس من للسبيل ممهّد
كم لي اليك مقاصد أملتها --- لولا علي قلت خاب المقصد
تتكلم الايام عنه صامتا --- واذا تكلم فالحديث المسند
يا ايها الملك المطاع ومن له --- زمر الخلائق بالمكارم تشهد
ولك المساعد والنصير محمد --- ومحمد نعم النصير المسعد«..

اعداد انطوان شعبان – 17

قبل الانتقال الى مرحلة ما بعد الشيخ حمد البيك، لا بد من اطلالة على واقع الزعامة في بيت علي الصغير، في المرحلة التي سبقت وتزامنت مع عهد حمد البيك، الأمر الذي كان له كبير الأثر في الخلاف الزعامي الذي برز مع وفاة حمد وانتقال السلطة الى خلفه، فحسين بيك السلمان العباس النصار، كان قد تولى المشيخة نحو العام 1841، «وكانت بنت جبيل دار حكمه، وقد بنى فيها السراي ومكث بها سبع سنوات، وتوفي سنة 1265هـ (نحو 1848م)، فأقيم مكانه ولده تامر بيك باسم مدير جبل هونين». وكان حسين المذكور «هو الزعيم العاملي الوحيد الذي سالم المصريين عام 1832 عند احتلال ابراهيم باشا لسوريا، وكان صديقاً حميماً للأمير بشير الشهابي الثاني، وكانت له مشيخة المشائخ على عهدهم.. كما ان الظاهر ان الزعامة العامة (مشيخة المشائخ) انتقلت من حسين السلمان الى حمد البيك». وقد يكون أمر «مطاردة حمد البيك للمصريين، واستيلاءه على البلاد، هو الذي حال بين حسين وبين المشيخة العامة، ومن ثم اصبح حمد هو الزعيم المطلق واصبح شيخ المشايخ رسمياً. فمن هنا كان من الطبيعي «أن يرث تامر الحسين السلمان عن أبيه عداوة حمد وذويه، وقد كان تامر واباه وجده يحكمون مقاطعتي جبل هونين ومرج العيون». وفضلاً عن ذلك فان تامر بيك الحسين المذكور كان أكبر سنا من علي بك الاسعد، وهو أيضا نجل حسين السلمان شيخ المشايخ على عهد المصريين كما تقدم، وحمد البيك مات من دون عقب، «فمن اجل ذلك كله كان تامر يرى نفسه احق بالرئاسة العامة من علي بيك الاسعد، وقضية التقدم في السن كان لها قيمتها عند آل علي الصغير، فانهم كانوا يأمرون الناس.«

ومن الشواهد على ان الضغائن كانت قبل تولي علي بيك الزعامة، ما جاء في مراثي حمد البيك، وفيها، ان اناساً «كانت تشرئب اعناقهم للزعامة على عهد حمد نفسه، وانهم شامتون بموته ويرتقبون انتقاماً لهم، كما انه يظهر منها، ان أهل الفكر والرأي كانوا بأجمعهم متوجهين الى علي بك، لانه هو المعزى بحمد دون من سواه، وهو المرشح للزعامة دون من عداه». ومما جاء في قصيدة الشيخ علي زيدان العاملي:

»فقل لحسود راح يغضي على قذى -- يكابد أضغاناً ملأن الترائبا

أتأمل من حوض الأماني مشارباً --- ولمت شرب الكأس الذي كان شارباً

تزحزح قصياً قام بالأمر حازم --- وشبل غدا عن ذلك الليث نائبا

عهد علي بيك الاسعد

ولكن المشيخة ورئاسة العشائر انتقلت الى علي بك الاسعد، بعد موت حمد البيك، فأعاد الى الأذهان صورة مجد آل بيته وخاصة ناصيف النصار أحد أكبر مشاهير آل علي الصغير، فعمل على توحيد كلمة العامليين، كما «جمع كلمة العرب حوله في سوريا ولبنان، في الحواضر والبوداي، ووجه أنظارهم اليه، فحامت آمالهم عليه، حتى اصبحوا نصاله التي اذا رمى بها اصاب، وجنده الذي اذا غزا به فتح، وحتى اصبح هو الرجل الوحيد، الذي يصلح شؤونهم في ما بينهم، او في ما بينهم وبين الحكومة العثمانية»، وكان لعلي بيك مواقف وطنية مشرّفة من الاحداث الطائفية الاهلية في العام 1860، فمن هنا وقفت حكومة الاحتلال التركي موقف الحذر والريبة، وراحت تنصب له الكمائن، وتحيك المؤامرات للايقاع به، والغاء الحكم الذاتي في جبل عامل، وتطبيق الحكم العثماني المباشر فيه، وذلك ما حصل فعلا بعد التخلص من علي بك، فعلي هذا، هو ابن اسعد البيك ابن محمد البيك ابن الشيخ محمود النصّار، ولد عام 1821، وتوفي في دمشق عام 1865 ودفن في مقام السيدة زينت، وعمره خمس واربعون سنة.

وجاء في سرية علي بك انه «توفي جده محمد البك ابن ابي حمد ابن الشيخ محمود النصار في سنة ولادته (في الزرارية)، وتوفي والده اسعد بك قبيل خروج ابراهيم باشا المصري من سوريا، وقد شارك علي بيك عمّ ابيه حمد البيك في مطاردة المصريين وكان عمره اذ ذاك نحواً من عشر سنين، وقد تولى بنفسه سوق اسرى واقعة وادي الحبيس وتسليمهم للقائد العثماني، وتزوج سنة 1262هـ (1845م)، وتولى حكومة البلاد بعد وفاة حمد البيك سنة 1269هـ (1852م)، وكان حمد البيك قد مهد له الامور، وكان يحمل كفاءة عظيمة ومقدرة خارقة.. فقد عمرت سوق العلم على عهده، وقامت عكاظ الادب على ساق، واعتزت البلاد وظهرت بأعظم مظاهر الكرامة، وقد الف بين زعماء عاملة، فأمرهم بأن يتخاطبوا في ما بينهم بـ«يا ابن العمر» مع ما بينهم من بعد الانساب، ومع ان آل علي الصغير يتزوجون من المناكرة والصعبيين ولا يزوجونهم.. وقام علي بيك في مقام عم ابيه حمد البيك وتولى حكومة البلاد واحسن ادارتها، فكان الزعيم المطاع الذي يقف آل علي الصغير وآل منكر وآل الصعبي عند اوامره، وكان له قدم راسخة عند الدولة العثمانية حتى كانت الايالة تستعين به على تسكين الثورات.

وكان قد احكم صلاته مع زعماء القبائل السورية من أهل البوادي، فغمرهم بالعطايا وارهبهم بكثرة السلاح والرجال وأرهب بهم من عداهم من الزعماء، وكان علي بك مضافاً الى حنكته واجتماع كلمة أهل العلم حوله واحاطة أهل الادب به من سائر الاقطار العربية، وتوجه انظار الافذاذ اليه، اديباً ماهراً وشاعراً عبقرياً.. ومما جاء في عينيته المشهورة:

»نعمت صباحاً ربع تبنين واغتدت -- بك الغيد والآرام وهي روائع

سموت بآباء كرام شعارهم -- بناءالمعالي حيث كيوان طالع
هما لقوم من عليا نزار وطفلهم -- تمائمه البيض الرقاق القواطع
وهم مهدوامن عامل كل صعبة -- وهم شيّدوها والرماح شوارع
وهم ورثوها بالصوارم والقنا -- وفي هممم تندك منها القوارع
وهم لذوي الآمال كعبة آمل -- وعند لقا الأعدا رياح زعازع

مكانة علي بك ودوره ومزاياه

ومما جاء في سياق الاشارة الى مكانة علي بيك، انه تلقب رسمياً «رئيس العشائر، وشيخ مشائخ بلاد بشارة، كما كان أسلافه، واللقب الأول منح لهم من طرف الباب العالي بعد الاتفاق الذي عقد في عكا بين عسائر جبل عامل، وبين سليمان باشا والي ايالة صيدا في سنة 1804 م واول من ناله فارس الناصيف النصار، واللقب الثاني منح لهم بعد جلاء المصريين من سوريا سنة 1842م.«

وعن دوره الاجتماعي ان علي بيك «ما دخل في مشكلة الا وحلها.. وهو الذي اصلح بين آل المزيد وال الدوخي رؤساء بني علي وكل منهما من فروع عنزة وحسم ما بينهم من خلال وعقد راية الصلح بيده، التي كانت ولم تزل من خصائص آل علي الصغير من ذزمن قديم الى يومنا هذا، فلا يتم صلح ولا تعقد راية الوئام بين قبيلتين متعاديتين من العشائر الضاربة في جنوب سوريا وشرقها الا في دور آل الاسعد في تبنين والطيبة.«

وعن كرم علي بيك وتشجيعه العلم والادب «ان الحكومة العثمانية اعتقلت بعض الزعماء المعاصرين لعلي بيك، لانه تخلف لها عليه دين مقـداره سبعون الف قرش، فأرسل علي بيك هذه القيمة مع معتمده، وقضى بها دين ذلك الزعيم.. واطلق اساره على بعد داره من غير ان يدعى لذلك، فان الزعيم المعتقل لم يستغث به، وغيره لم يتوسط بهذا الامر، بل كان ذلك ابتداء احسان.. وانه قضى عن زعيم آخر خمسة واربعين الف قرش، لانه بلغه انه مثقل بالديون، وهـو من ارباب المجد والشرف، فأرسـل اليه هذا المبـلغ من غير استدعاء ولم يسمه تشريفاً له ايضاً وابتعاداً عن المن«...

وذكر في هذا المجال ايضاً انه «عندما حدثت الواقعة المعروفة بواقعة صفورية في فلسطين بين زعيم الاكراد في الديار الشامية شمدين زادة محمد سعيد باشا الذي اصبح بعد ذلك محافظ موكب الحاج الشريف، وبين عقيل آغا الحاسي الشهير رئيس قبائل عربان الديار المصرية ـ الهوارة والهنداي ـ فتغلب الحاسي على زعيم الاكراد وقتل اخاه، وتتبع فلول رجاله، فاستنجد زعيم الاكراد بعـلي بك الاسعد، فجهز له سرية من رجاله وامده بالذخائر والمهمات وحـشد مـعه العسكر في ارض الخيط من اعمال صفد، وفرّق جموع آغا الحاسي.. (ويعتقد انه اقام الصلح في ما بعد بين زعيم الاكراد وعقيل آغا)، ثم انه وفد عليه عقيل آغا الحاسي ومعه من قومه الهوارة والهنادي ثلاثمئة فارس واهدى لعلي بك فرساً وجواداً من الخـيل الجياد وكان الوالي قد نحى عقيل آغا عن منصبه، فأكرمه علي بك.. وخلع عليه وعلى قومه الخلع الثمينة حتى انه لم يبق في مـنازله قطـعة من القطع الثمنية المدخرة مما بقي من الموروث عن آبائه واسـلافه الا اخرجها في ذلك اليوم، حتى بلغت قيمة ما اكرمهم به ثلاثمئة وخمسين الف غرش ـ وبالطبع ان هذه القيمة مع قـطع الـنظر عن قيمة تلك الاشياء الاثرية ـ ومما اكرمهم به علبتان من الذهب مرصعتان بالالماس الثمين، وخنجران مذهبان مرصعان بالالمـاس، وآلات تبغ من الكورباء المرصع بالالماس، وخمسة وسبعون سيفاً مفضض القبضة.. وبندقية وعدد من السلاح المسـمى طبنـجا وقرابـينه.. والبس كلا من الثلاثمئة، بعضهم جبة وسروالاً من الجوخ وكفية من الحرير، والبعض عباءة وسروالا وكفية.. ثم ان علي بك طلب من والي صيداء العفو عن عقيل آغا فأجابه الى ذلك، واصدر اوامر الرضا«..

ومن مكارمه ايضا «انه استحضر عائلتين كبيرتين من بعض امراء بعض الديار، فاسكنهما في قصوره الشامخة، وبذل لهما سائر ما تحتاجانه من مال وذخيرة واقامتا على ذلك اعواماً.. وانه كان يكرم ذوي البيوت العالمية، فلم ير في زمانه شخصاً يستحق منصباً وهو دونه.

اعداد : انطوان شعبان – 18

يوم زفافه العام 1845، في قلعة تبنين التي بنى فيها السرايات والقصور الفخمة، اجتمع الناس «من سائر الديار الشامية من ذوي الحضارة والبداوة بين وجيه وأمير، وكبير وصغير، ولقد جمعت وليمة ذلك الزفاف ما ينوف عن الاربعين الفاً، وكانت الجفان والاواني لا تعد ولا تحصى، وقد امتدت للخاص والعام، ومع ذلك لم تكف فآل الأمر الى اتخاذ الألواح الكبيرة والصاق بعضها ببعض، حتى غدت كأنها جفان في بطون اودية، تقل ربوات من القرى، وغصت المنازل والبيوت المعدة لهذه الجماهير، وكانت الخيام قد ضربت وامتدت اطنابها.. وقد اغدق على الوفود في ذلك اليوم بالصلات والعطايا من الخيل والسلاح والخلع والنقود، حتى قال الناس، لو كان هذا البذل من بحر لنفد.. ومما جاء في قصيدة الشيخ صالح الطرشيحي في تلك المناسبة:

»طفح الكون سروراً طفحا -- وهمى غيث الصفا كالمطر
وتلاشى الهم عنا وانمحى -- ما عهدنا في الورى من كدر
مذ أقام السعد فيه الفرحا -- لعلي ذي المقام الأنور
فهلموا يا بني الدنيا اليه -- وانظروا ما بهرت منه العقول
محشر قد جمع الناس عليه -- لا تفي في وصفه منّا النقول

ومن قصيدة الشيخ حبيب الكاظمي في تلك المناسبة، قوله:

من يعرب فيها تسامت يعرب -- فمكفل في مجدها ومكفل
هم ال نصار الذين اذا انتموا -- لبس المفاخر حارث ومهلهل
الخيل صافنة على ابوابهم -- والرعب يعدو في القلوب فيقتل

واما عن سخائه لذوي العلم والادب، ان الشيخ عباس القرشي النجفي قد وفد عليه «فأنس بوافر أدبه، وسعة اطلاعه.. فغمره بالعطايا، ولم يسمح له بمبارحة ديوانه في حصن تبنين، فاختلس الشيخ فرصة سانحة، وفرّ من القلعة، تاركاً في الغرفة المخصصة له، رقعة كتب عليها هذين البتين:

زرت ابن أسعد فانهلّت أنامله -- عليّ من جوده كالوابل الغدق
ثم انصرفت بلا اذن ولا عجب -- إني خشيت على نفسي من الغرق«

وقد حدّث الشيخ محمد مغنية العاملي «ان علي بيك الاسعد أمير جبل عامل استدعى الشيخ جعفر مغنية المتوفي سنة 1283هـ (1865م) الى قلعة تبنين لتعليم اولاده وتهذيبهم وهم: شبيب باشا، وناصيف باشا، ونجيب بيك، ومعهم جماعة من الطلبة، منهم الشيخ موسى شرارة، فبقي على تلك الحال الى ان اصابتهم النكبة، واخذوا الى صيدا ثم الى بيروت، ثم الى دمشق، وتوفي علي بيك وابن عمه محمد بيك في دمشق بالوباء سنة 1282هـ اي في العام 1865م.

وقال الشيخ مغنية ايضاً في كتابه «نفائس الحكم وجواهر الكلم»: «..لأنه بعد نكبة العشائر انقلب موضوع العلماء.. وكان قبل ذلك يوجد اقطاعات كثيرة للعلماء، وذوي البيوت، فأهل البيوت التزموا امر معاشهم، وهجروا الدرس، وصار نسياً منسياً، خصوصاً جبع، فبعدما كان سوق الدرس فيها عامراً، واليها الرحلة، اصبحت هي وغيرها كأنها لم تكن«..

وأضاف: «وقد كنت استغرب التفاف العلماء حول شبيب باشا ابن علي بيك الاسعد بعد عودته من الاستانة، ولكنني بعدما لاحظت هذا الموضوع وجدته يستحق ذلك، ووجدت العلماء مدينين لأبيه«..

ويقول الشيخ احمد رضا في «العرفان»: «وقد نمي الادب في عصر حمد البيك نمواً باهراً، حتى اشترك فيه العوام.. ولم يكن قرض الشعر عند آل علي الصغير مقصوراً على رجالهم، بل تعداه الى السيدات من نسائهم وكريماتهم، وكن يدرسن النحو، والصرف، والبيان، والادب، فينبغ منهن شاعرات فاضلات كالسيدة فاطمة كريمة اسعد بيك الخليل، اخت خليل بيك الاسعد، ومحمد بيك الاسعد، وعمة كامل بيك الاسعد، وعبد اللطيف بيك ومحمود بيك، وهي زوجة علي بيك الاسعد«..

وذكر محمد جابر في «العرفان» انه من الشاعرات ايضاً «السيدة زينب كريمة علي بيك الاسعد، والدة الزعيم الشاعر محمد بيك سهيل قائمقام راشيا.. ومنهن الاديبة التي لمعت في عصرها في مصر وسوريا، زينب محمد علي فواز، من بلدة تبنين ـ مقر زعماء البلاد في وقتها ـ ومن شعرها الذي تبكي فيه بلدتها تبنين، وتندب الزعماء الذين كانت تعيش في رحابهم، قولها:

»يا ايها الصرح ان الدمع منهمل --- فهل تعيد لنا يا دهر من رحلوا
وهل بقي منك من ينعى معي فئة --- هم المغاوير في يوم الوغى الاول
قد كنت للدهر نوراً يستضاء به --- أختا عليك البلى يا ايها الطلل
كم زينتك قدود الغيد رافلة --- بالعز تسمو ووجه الدهر مقتبل

ابكيك يا صرح كالورقاء نادبة --- شوقاً اليهم الى ان ينتهي الاجل
قد كنت مسقط رأسي في ربى وطني --- ان الدموع على الاوطان تنهمل
تبنين ان كنت من بعدي على حزن -- فاليوم يوم رجوع القلب يشتعل
وقفت وقفة مشتاق به شغف --- علي أرى اثراً يحيا به الامل
اذا الاحبة قد سارت رحالهم --- فزاد شوقي كما قلت بي الحيل
فالنفس شاكية والعين باكية --- والكبد دامية والقلب مشتعل.«

مآثر علي بيك الوطنية

هذا، عن كرم علي بك وحال الأدب في عصره، أما عن مكانته ومآثره الوطنية التي كانت من العوامل التي اثارت نقمة سلطات الاحتلال العثماني عليه فتمكنت من القضاء عليه، مستغلة صراع النفوذ والزعامة في بيت نصّار من آل علي الصغير، «انه عندما حدثت الحرب الاهلية في لبنان بين الدروز والنصارى عام 1860 (الموافق سنة 1277هـ)، وقف علي بيك واهل بلاده موقفاً شريفاً يشكره لهم التاريخ، فقد التجأ اليهم كثير من منكوبي النصارى، فآواهم العامليون وأكرموا مثواهم ودافعوا عنهم دفاعاً مجيداً لم يزل يذكره نبلاؤهم الى اليوم، وبالطبع ان مصدر هذه الاعمال، علماء عاملة وزعماؤها، فقد حدثنا التاريخ ان النصارى اودعوا اموالهم في جباع في دار العلامة الشيخ عبدالله نعمة وفي دور آل الحرّ ووجيههم في ذلك الوقت الشيخ علي الحر، فنهب الدروز تلك الأمانات ولم يعفوا عن أموال العلامة وآل الحر، فاهتزّ الجبل بأسره وأسرع محمد بيك الاسعد على رأس الف فارس الى جباع لمهاجمة الدروز، وحاول ان يثأر لكرامة هؤلاء وينتصر للمسيحيين، غير ان سياسة الدولة قضت بايقاف الهجوم وحال دونه خورشيد باشا والي ايالة صيدا، فسوّى المسألة وأعاد المسروقات، وعوّضت الدولة على العلامة الشيخ عبدالله نعمة وعلى آل الحر بدل ما فقد لهم، وعندما وقعت الواقعة ارسلت الدولة العثمانية الوزير فؤاد باشا لاخماد الثورة، فاستدعى علي بك، وصحبه معه الى الشام وغيرها، وكان مع علي بك ما يقارب من الف فارس، من فرسانه الاشداء على نفقته، فقسمهم ووجههم لحماية تلك الجهات، فأرسل سرية الى حوران، وثانية الى غوطة الشام، وثالثة الى وادي التيم لملاحظة حاصبيا وراشيا، ونقل مصابي المسيحيين منها ومن جبل لبنان الى صور وصيدا وبيروت، وكان قد آوى شطراً منهم في دار حكمه تبنين، وكانت مع ذلك صداقته مع زعماء الدروز محفوظة، واقتضى الامر ان يتوجه بنفسه الى حوران، فلما وصلها، توافد عليه الزعماء كولد علي من عنزة والرولا، وغيرهم، وكان علي بك اذا ركب تقاد له ستة جنائب من جياد الخيل مزينة بالحلي المتقن مسرجة بالسروج المفضضة المذهبة، ولا يركبها احد سواه، ينتقل من بعض منها لاخر متى شاء، وكان يمتطي في ذلك الوقت صهوة عبيان الجواد الاشقر الذي قيل انه ليس له ثان في الاقطار الشامية حاضرها وباديها، ولما نظر الشيخ محمد الدوخي السمير رئيس بني علي احداها ادهشته، فسأل السائس عن جنسها، وكانت حمراء، فقال له النعامة، فذكر لعلي بيك اعجابه بها فأمر له فيها بما عليها، فأخذها شاكراً، وكان يصله هو وغيره من الزعماء اذا وفدوا، ويتفقدهم بالصلات وهم في منازلهم، وكان اذا حضر في المحل الذي يقيم فيه فؤاد باشا، يكون عضواً فوق العادة في المجلس المشكل للنظر في الامور«...

{تعاظم نفوذ علي بيك يثير نقمة العثمانيين{

وفي تفاصيل موقف علي بك الاسعد من احداث 1860، ونفوذه الذي اثار حفيظة العثمانيين وسعيهم تالياً الى الايقاع به، انه في العام 1860«قدم سوريا فؤاد باشا السياسي التركي المعروف، وكان يومئذ وزير الخارجية العثمانية، وقد ارسلته الدولة مندوباً فوق العادة لاصلاح شؤون سوريا اثر الحروب الاهلية التي شبت بين الطوائف في دمشق ولبنان ووادي التيم. ووفد عليه زعماء جبل عامل برئاسة علي بيك الاسعد ومعه ما يزيد عن الف فارس من خيرة فرسان الشيعة وابطالها، فأكرم الوزير وفادتهم وأثنى على طاعتهم، واحتفى بعلي بيك وأعلى مجلسه وعينه عضواً مستشاراً في المجلس الاعلى الذي الفه للنظر في شؤون سوريا والتحقيق في الفتن التي ثارت فيها، وأوكل اليه حفظ الامن في ضواحي دمشق وحوران ووادي التيم، وحماية منكوبي المسيحيين، وتأمين نقلهم الى السواحل، ومطاردة الثوار الفارين، فقبضوا على جماعة، منهم حسين بيك جنبلاط، احد قواد الثوار، وعوتبوا على ذلك من بعض اعيان الدروز، فأجابوهم «حسين بدل عن حسين»، (أما الاول فهو حسين بيك جنبلاط، وأما الثاني فهو حسين بيك الشبيب الصعبي الذي قبضه الدروز في ضواحي الشام وسلموه لشريف باشا الوزير من قبل ابراهيم باشا المصري، وشنقه هو وخادمه موسى قليط ـ وذلك مأخوذ من «جبل عامل في التاريخ للشيخ محمد تقي الفقيه ـ)... ويحدّث رواة ذلك العصر ان فؤاد باشا لم يرق له نفوذ علي بيك الاسعد وسلطته الواسعة ووفرة جنوده واعوانه، وكانت الدولة بدأت باصلاح نظام الادارة والغاء الحكم الاقطاعي، غير ان حراجة الموقف واشتعال البلاد بالثورات الاهلية، وما اتخذه علي بيك من الاحتياط والحذر من غدر الترك، دعاه الى تأجيل اغراضه لوقت مناسب، وكان يلاطف علي بيك ظاهراً ويطري اخلاصه. وقد استصدر له الارادة السنية السلطانية بتلطفه برتبة (قوبجي باش) في حين انه يرسم الخطط سراً لقلب حكومته، والقضاء على نفوذه.«

اعداد: انطوان شعبان – 19

في العام 1900 توفي خليل بك في الطيبة، وخلفه في زعامة جبل عامل نجله الاكبر كامل بك الاسعد.
وعن سيرة كامل جاء انه «ولد في الطيبة عام 1870، والدته السيّدة سعدى كريمة الحاج محمّد الفارس من اسرة علي الصّغير.
تخرّج من المكتب الملكي الاعدادي في بيروت الذي كان يدعى المدرسة السلطانية وكان برئاسة الاستاذ الامام محمّد عبده المصري. وكان كامل يعدّ اذكى تلميذ في ذلك المعهد. ونحو العام 1891 عيّن مديرا للنبطية، ثم استقال منها. وانتخب عضوا للمجلس العمومي في بيروت، ثم عضوا لمجلس المبعوثان التركي. وسافر الى مصر واوروبا انتجاعا للصحة. واتسعت معلوماته واحرز من الرّتب في عصر السلطان عبد الحميد الرتبة الاولى من الصنف الثاني التي تعادل رتبة امير اللواء العسكرية ولقبها «سعادتلو»، صاحب السعادة، ولكنه لم يحفل بها. وفي الاستانة خلال اجتماع مجلس المبعوثان لمع اسم كامل بك لكرمه وجرأته. وانتظم في سلك حزب الائتلاف، فكان من اركانه. وعاكس الاتحاديين معاكسة شديدة، ثم عاد الى حظيرتهم لأسباب قسرية.«
ومن آل الاسعد الذين نافسوا كامل الاسعد في تلك الفترة شبيب باشا الاسعد، «وهو اكبر انجال علي بك الاسعد، توفي والده وعمره 13 سنة. ولد سنة 1852. وكان ذكيا مهاب الطلعة، اديبا شاعرا، يميل بطبعه لتكريم العلماء واهل الادب، والسّير على خطّة اسلافه بزعامة البلاد. واختلف مع اخويه نجيب بك وناصيف باشا، ثمّ مع خليل بك الاسعد...
وفي إثر ذلك سافر الى الاستانة فأقام فيها 22 سنة، ولم يحصل الاّ على رتبة (ميرميران)، التي يخاطب بها بلقب باشا، وكان فخورا بها. وعاد الى وطنه بعد نشر الدستور التركي الثاني عام 1909، ثم رشّح نفسه لعضوية مجلس الامة (المبعوثان) عن لواء بيروت (جبل عامل)، فزاحمه كامل بك الاسعد مزاحمة شديدة وفاز عليه. وسكن شبيب باشا في صيدا لا يبارحها الى ان وافته المنية عام 1917.
وعن عودة شبيب باشا الى جبل عامل عام 1909، «انه لما رجع اقام في قلعة تبنين مركز آبائه، والتف حوله العلماء بأجمعهم الا نادرا، ولعلّ ذلك تقديرا لماضي ابيه، وعمّهم محمّد البك، او لشهرته بالتقوى والاستقامة، وقابله خصومه بالاساليب غير المشروعة، فهجموا على قرية صريفا، واطلقوا النار عليها، وقتلوا بعض المواشي، ثمّ ارسلت البرقيات الى الاستانة، بأنه هو واتباعه، او اتباعه فعلوا ذلك، وبأن وجوده في البلاد مفسدة لها. فجاء الامر من الاستانة بإخراجه من البلاد. فذهب الشيخ الفقيه وجماعة آخرون من العلماء والاعيان، واتصلوا بالمسؤولين وطلبوا منهم الإبراق الى الاستانة اما بإبقائه، واما بإخراجه من البلاد مع خصومه، لان بقاء احدهم واخراج الآخر مفسدة كبرى بالنسبة لأنصار من يخرج، لان الباقي منهم في البلاد سينتقم من خصوم من يخرج، فأبرقوا، واستجابت الدولة، فألغت المرسوم الصادر بإخراج شبيب باشا ...ثمّ لم تطل مدّة الباشا، وتوفي، فاستقامت الزعامة لكامل بك.«
{دور كامل بك ومسؤولياته{
وفي تفاصيل عن مزايا ومكانة ودور كامل بك «انه كان زعيما شعبيا، بعيد الشهرة، ذائع الصيت، يتردّد اسمه في الاندية والمحافل، مشهورا بالكرم والحنكة والنجدة والبسالة والقوة وحسن الخلق والخلق». وقد اهتم كامل بك بالعلم والعلماء، وعقد النيّة على انشاء جامعة علمية دينية، متابعا بذلك ما كان بدأه والده خليل بك. ففي العام 1907، دعا العلماء والزعماء للاجتماع في بلدة الطيبة في منزله المعروف «بدار الطيبة»، لأجل إنشاء مدرسة دينية، كما كان ينوي والده خليل، وجرى الإكتتاب، فجمعوا ثمانمائة ليرة ذهبا، وكان المتبرّعون لا يزيدون عن ثلاثين شخصا، وقد تفرّقت الآراء حول هذا المشروع، فتفرّقوا قبل استقرار الرأي. ثمّ قرّر كامل بك الاجتماع في النبطية في دار محمود بك، وفضل بك، فحضر بعض، وتخلّف آخرون، ولفظ المشروع انفاسه الاخيرة.«...
وفي العام 1911، «جرى نزاع بين آل البعدالله، وبين اهل الخيام، ادى الى خرابها، ثم احتكموا الى الزعماء، فرضي آل العبدالله بكل ما يحكم به كامل بك الاسعد، واشترط اهل الخيام اشتراك غيره من الزعماء.«
وفي ذلك العام انتخب كامل بك «مبعوثا في الاسطنبول بالاجماع، لان الاصوات الثانوية كانت تتألف من ستة وعشرين شخصا، غاب منهم اثنان، والباقون صوتوا له، واحتج المعارضون الموجودون في بيروت زاعمين ان الثانويين كانوا مجبرين على انتخابه.«
وفي العام 1911 ايضا «رجع كامل الاسعد الى بيروت عائدا من اسطنبول، واستقبله اخوه عبداللطيف بك، وفضل بك الحسن، والحاج محمد سعيد بزي، ثم استقبله زعماء الحولة في اربعمائة فارس الى النبطية... ثم جاء، فاستقبل في النبطية وحبوش استقبالا فخما..
وفي العام نفسه «انتهت دورة «المبعوثان» في اسطنبول، وانتخب كامل بك في سوريا وبيروت، لانه نال ثقة الاتحاديين، وكان انتخابه برضى الشعب واقباله، لا كما زعم بعض خصومه من اللبنانيين.«

{الحركة العربية في سوريا{
وفي العام 1914 «اغتنم الاحرار من العرب فرصة النفور عن الحكومة العثمانية وانشغالها في الحرب، فنشطوا للعمل وايقاظ الحركة العربية في سوريا، فأوفدوا في 18 تشرين الاول 1914 الى جبل عامل عبدالكريم الخليل رئيس المنتدى الادبي في الآستانة مندوبا لجمعية الثورة التي اتحدت مع جمعية اللامركزية، وتألف فرع هذه الجمعية في النبطية من الشيخ احمد رضا، والشيخ سليمان ظاهر، ومحمد جابر في 26 تشرين الاول 1914.
وقد وصل امر هذه الجمعية الى الوالي التركي، وعن ذلك جاء في «صفحات من تاريخ جبل عامل في العهدين العثماني والفرنسي». لمؤلفه نوال فيّاض: «وصل امر الجمعية الى جمال باشا، وكان في القدس، ببرقية ارسلها اليه كامل الاسعد، وكان قد نقل اليه الخبر عبدالله عسيران. وكان الاسعد على خصام مع آل الصلح رضا وولده رياض بسبب خلاف على الزعامة. ويقول الشيخ احمد رضا في مذكراته غير المنشورة ما يلي: «الذي يسترعي النظر ان عبدالله عسيران، نقل هذا الخبر وهو غير عالم بهذه النتائج الوخيمة، بل كان مدفوعا بالحزبية غير ناظر الى العواقب، بدليل اننا عندما استدعينا الى سجن عاليه مررنا في صيدا فرأيناه مضطربا جدا، واما كامل بك فقد اراد الديوان العرفي استدعاءه للشهادة فأبى واتخذ سبيلا للخلاص منها، وكذلك عبدالله عسيران. ولم يكن يقصد كامل الاسعد بما نقله لجمال باشا مناوأة الفكرة العربية والتزلّف للترّك، وهو العربي الصميم الشديد التمسّك بقوميته العربية، وقد خدم القضية بماله وجاهه خدمات جليلة.«
وفي «تاريخ جبل عامل» لمحمد جابر، انه «في خلال الحرب الكبرى واثناء وجود السفاح جمال باشا في سوريا قرّب اليه كامل بك واكرمه وزاره في الطيبة لما كان ينويه من الاستقلال في حكم سوريا، وذكره في مذكراته، وفيها «ان كامل بك الاسعد كتب يومئذ للشيخ اسعد الشقيري مفتي الجيش الرابع عن حركة صيدا وانها بتدبير رضا بك الصلح وعبدالكريم الخليل.«
ويعلّق محمد جابر، مكررا ما نسب للشيخ احمد رضا في مذكراته، فيرى ان ما نقله كامل بك للاتراك عن حركة صيدا لم يكن تزلّفا للاتراك، وتآمرا على القضية العربية التي قدّم لها كامل بك «خدمات جليلة معروفة حتى اضطهده المحتلون بعد الحرب وحاولوا القبض عليه والانتقام منه فلم يظفروا به، فنهبت داره بالطيبة وهدم قسم منها. وانما كان ذلك منه، عفا الله عنه، عن ثورة عواطف مقرونة بعدم التبصّر بالعواقب وبتحريض فئة من الملتفين حوله، رغبة منهم بالانتقام من الزعيم المعروف رضا بك الصلح، ومن الشهيد عبدالكريم الخليل...
وقد دعي كامل بك مراراً للمحكمة العسكرية في عاليه للادلاء بمعلوماته عن المعتقلين فإلى ان يلبي الطلب. وبعد الحاح من رئيس الديوان العرفي، ذهب الى عاليه، وقابل الرئيس في دائرة رضا باشا قائد لبنان العسكري، ونفى كل ما نسب اليه.«
وفي العام 1915، «مرّ جمال باشا في النبطية متوجهاً الى الطيبة تلبية لدعوة كامل بك الاسعد يصحبه محمد كرد علي، والامير شكيب ارسلان وغيرهم من اعيان البلاد، وعند وجودهم في بيت آل الفضل في النبطية، وبناء على طلب المشتركين في الاستقبال، وخوفاً من بطش جمال باشا، القى كلّ من الشيخين احمد رضا وسليمان ظاهر، كلمة ترحيب اشاد بها بالسلطنة العليّة، وبالمناسبة قدّم الباشا لكل منهما هدية رمزية، وهي عبارة عن ساعة يد، لا يزال الدكتور نزار نجل الشيخ احمد رضا يحتفظ بها، وهي من الآستانة. وبعدها رافقاه الى الطيبة بناء لطلبه لتناول الغداء الى مائدة كامل بك.«
وعن مظالم الباشا الطاغية واثارته الفتن الطائفية في تلك الفترة، يورد محمد جابر في «تاريخ جبل عامل انه عندما اراد جمال باشا»، احداث فتنة بين اللبنانيين (اهل جبل لبنان)، واهل جبل عامل، او بين الشيعيين والمسيحيين، استحضر لديه في ذاك العهد بعض زعماء جبل عامل وابلغهم بواسطة محمد جمال باشا قائد القوى العسكرية في لبنان ان يكونوا على استعداد لمهاجمة الشوف ودير القمر وما يتبعها. واوهمهم ان لبنان يتمخّض بثورة ضد المسلمين يغذيها الاجانب. واختصّ عبداللطيف بك الاسعد بقيادة الحملة على لبنان الجنوبي وجبل الشوف. وادرك عبداللطيف بك، ولم تبرح من باله حوادث القرن الماضي، الغاية من هذه الحركة التي يراد بها هلاك الفئتين، ثم القاء التبعة على الاهلين انفسهم والاجهاز على من يبقى منهم. قال عبداللطيف بك: فتظاهرت بالطاعة، وطلبت بكل بساطة امرا خطيا يجيز لي الدفاع والهجوم. فتبسّم رضا باشا وعلم ان الحيلة لم تجز عليّ فطوى الحديث.«

اعداد: انطوان شعبان – 20

في تلك الفترة الحرجة من تاريخ جبل عامل «وردت الى كامل الاسعد من قادة الثورة العربية، رسالة يطلبون فيها منه بصفته زعم جبل عامل اتخاذ موقف صريح، فأما ان يكون مع الدولة السورية، وعليه ان يعلن ذلك بكل وضوح، واما ان يكون ضدّها، وعليه ان يعلن ذلك ايضا. فقد وفد عليه السيدان احمد مريود، واحمد العاصي، موفدين من قبل قادة الثورة، يقولون له انه انقضى دور الاقوال، وجاء دور الاعمال، فعلى جبل عامل ان يصرّح بخطته ومنهاجه، فإما ان يكون معنا، فليستعدّ للثورة، واما ان لا يفعل، فيكون علينا، ويكون لنا وله شأن. ويقول السيد عبدالحسين شرف الدين بهذا الخصوص، وكان من المشتركين البارزين في مؤتمر الحجير، ما يلي: «في هذه الفترة زاد الغيظ واضطربت الحال، وجاءت رسل الرؤساء من العشائر في المنطقة يحملون لكامل الاسعد رسائل الثورة ويدعونه الى خوض المعركة ويخيّرونه بين اثنين: اما ان ينضمّ اليهم بجبل عامل فيكون معهم حربا على فرنسا، واما ان يعتزل فيكون غرضا لحربهم قبل فرنسا. ولم يجد هذا البلاغ استعدادا من كامل بك، لانه لم يكن مهيأ له، فاستمهل الرسل وحمّلهم الى اصحابهم رسالته، انه ليس بالمتفرّد بالرأي في عاملة من دون العلماء من اولي الشأن، ودون زعماء الدين، فلهم كلمتهم ولهم اتباعهم، فلا بدّ له من اجل يضربه لميعاد وتجتمع فيه العلماء والزعماء ويبحثون هذه القضية على ضوء التفكير والتأمل، وهكذا كان». ولكن جريدة البشير تقول: «حضر الى كامل الاسعد وفد من عرب البادية يطلبون منه ان لا يتعارضهم احد في احتلال منطقة الساحل. فجمع كامل بك وجهاء البلاد والعلماء ورؤساء العشائر في وادي الحجير في 24نيسان.«

وعن اسباب انعقاد المؤتمر، يقول محمد جابر: «لما استفحل امر الثوار واشتدّ استياء عقلاء البلاد من هذه الحال ارسل كامل بك الاسعد الدعوة للعلماء والاعيان لعقد مؤتمر عاملي من ابناء الشيعة.

ومهما يكن من امر الاسباب المباشرة واخصّها رسائل قادة الثورة العربية المشار اليها، فان الحالة الامنية، ووقوع جبل عامل بين ناري الفرق المناهضة والفرق المؤيدة، ليدفع الثمن كما في كل مرة من شبابه وامنه ومستقبله، كان سببا اساسيا في تفكير الزعماء عن مخرج من هذا الواقع الصعب فوجه كامل بك الدعوة الى جميع الهيئات العاملية الدينية والاجتماعية والفكرية، يطلب اليها عقد اجتماع للتداول في امور خطيرة. واجتمع المدعوون في 24 نيسان سنة 1920 في مكان يتوسط البلاد، يعرف بوادي الحجير، وحضره من رجال الدين السيد عبدالحسين شرف الدين، والشيخ موسى قبلان، والسيد جواد مرتضى. وكان من الاعيان آل الزين، وآل الاسعد، وآل الفضل وغيرهم. كما تمثل رجال الفكر والادب بالشيخ احمد رضا، والشيخ سليمان ظاهر، ومحمد جابر، وكان ايضا صادق الحمزة من قواد الثورة يحيط به نحو الخمسين من رجاله وكلهم في عدتهم مع بنادق حربية ومسدسات وقنابل يدوية. وقد ترأس المؤتمر كامل الاسعد بصفته المسؤول عن تحديد الموقف السياسي في جبل عامل وزعيم البلاد. افتتح المؤتمر السيد عبدالحسين شرف الدين بكلمة شرح فيها الاوضاع الامنية في منطقة صور، وبعد ان انهى خطابه، دخل كبار الحضور الى سرادق خاص، حيث شرع كامل الاسعد في الحديث عن الغاية من عقد الاجتماع، وعن الرسالة التي وردته من قادة الثورة العربية.«...

وعن وصول الثائرين ادهم خنجر وصادق الحمزة الى المؤتمر واشتراكهما فيه جاء: «وصل ادهم محاطا برجاله الذين بلغ عددهم حوالى 200، وقد اعلنوا عن وصولهم بزخات كثيفة من الرصاص، وجلسوا في الجهة الشرقية قبالة الجهة التي كان يجلس فيها كامل بك ورجالات جبل عامل، وبعد ذلك سمع منادياً يقول: يا سامعين الصوت صلوا عالنبي، اولكم محمد وثانيكم علي، عن امر ادهم بك، ممنوع مقابلته لأي كان ما عدا كامل بك الاسعد ومحمود بك الفضل. فخرج كامل بك عن صوابه، وقد تملكه الغضب قاصداً ادهم، وقبل ان يصل، تقدّم منه ادهم اعزلا من السلاح، وسلّم عليه مبرراً عمله بضرورة المحافظة على حياته. وقد استقبلت الجماهير المناضل ادهم بهتاف مطلعه:

»ورد على بير الضحى -- حمر الشلافي غرّبت«

كما استقبلت المناضل صادق الحمزة، وهي تهتف:

»يهنيك يا بيك الخليل -- صادق ابو محمّد لفا.«

وخلّص المجتمعون في مؤتمر الحجير بعد المداولات الى الآتي: «ان المؤتمرين قرروا بالاجماع انضمامهم للوحدة السورية والمناداة بجلالة الملك فيصل ملكا على سوريا، ورفض الدخول تحت حماية او انتداب الفرنسيين.«

وبناء على اقتراح كامل الاسعد، قرّر المؤتمر ارسال وفد الى الشام مؤلف من السيد عبدالحسين شرف الدين والسيد عبدالحسين نورالدين، على ان ينضمّ اليهما في دمشق علامة الشيعة السيد محسن الامين، فيتولى هؤلاء الثلاثة نقل قرار مؤتمر الحجير المشار اليه، ومفاوضة الملك فيصل باسم العامليين، وتهنئته بملكية سورية مستقلة. وفي اثر ذلك «استدعي صادق الحمزة فدخل السرادق، حيث انعقدت الجلسة يحفّ به رجاله شاهرين بنادقهم حوله، فجلس امام العلماء والقرآن بين ايديهم، فأخذوا عليه وعلى رجاله العهد ان لا يتعرّض لأحد من المواطنين ابناء جبل عامل، مسلمين كانوا او مسيحيين، بسوء او اذيّة، فأقسم بذلك، واستثنى من كان منهم

«متآمرا على الوطن واستقلاله مجاهرا بذلك مع الغاصبين المحتلين مسلماً او مسيحيا او من اي مذهب كان، لأن جهادنا سياسي لا ديني.«

{حملة «نيجر» واحكام السيطرة الفرنسية{

لم يكن مؤتمر الحجير ليتماشى مع سياسة واهداف المستعمر الفرنسي، فعمدت سلطاته الى توتير الاجواء والتشكيك بمقررات المؤتمر، عبر المتعاونين مع هذه السلطات والصحف الموالية لها. وذلك في سياق خطة تقضي باثارة النعرات الطائفية، والفوضى والاقتتال والعمل على منع لقاء الطوائف وتطويق مبادرات الوحدة التي سعى اليها زعماء ورجال دين وعلماء من الطرفين، وذلك لاحكام السيطرة على البلاد، فبحجة وضع حدّ للفوضى وحماية المسيحيين «سيّرت فرنسا اى جبل عامل في 18 ايار سنة 1920 حملة انتقامية عددها 4 الاف جندي فرنسي يعاونهم ادلاء متطوعون (الانصار) بقيادة الكولونيل نيجر. ولم تلق هذه الحملة مقاومة تذكر، سوى مقاومة محدودة في وادي الحريق قرب تبنين. وعن ذلك يقول الشيخ رضا: «سمعنا اليوم ان الحملة الفرنسية المؤلفة من 4 الاف رجل، دخلت وادي الحريق بعد اجتيازها سهل صور. فتعرّض لها الثائر صادق الحمزة ومعه بضعة رجال، فصدّوها عن التقدم بما كان مع الثائرين من الذخيرة مدّة سبع ساعات، حتى اذا نفذت ذخيرتهم ولم يفقد منهم احد، اما الطرف الآخر فكانت خسائره بضعة جنود احدهم سائق مصفّحة.«

وجاء ايضا «سارت الحملة الفرنسية في اتجاهات متعدّدة، خاصة باتجاه الزهراني - النبطية، والزهراني صور. في المنطقة الاولى تصدّى لها ادهم خنجر، وفي المنطقة الثانية تصدّى لها صادق الحمزة... وفي مرجعيون التحم رجال ادهم مع رجال صادق، الذين كانوا يقاومون الحملة من صور باتجاه بنت جبيل وصولا الى مرجعيون، حيث تصدوا من هناك للحملة بما تبقى معهم من سلاح.«...

وامام عدم تكافؤ القوى، لم يشأ كامل الاسعد ان يجاذف بمواجهة حملة نيجر المسلحة بالدبابات والمدافع والطائرات، مفسحاً في المجال للحلول السلمية، ولكن الحملة تابعت زحفها، فأمعنت في جبل عامل خرابا وقتلا، ولم توفر حتى المساجد... «الى ان استقرّت في قرية هونين، واليها استدعى نيجر كامل بك الاسعد بقصد القاء القبض عليه وارساله الى بيروت اجابة لطلب الجنرال غورو الحاكم العام والقائد الاكبر لجيوش الاحتلال بتهمة ان له يدا في الحوادث الطائفية التي حصلت في جبل عامل، لكنه ترك بلدته الطيبة قاصدا دمشق، فزحفت الحملة الى بلدته واحتلّ الجند داره ونهبوا ما بها من اثاث ورياش وهدموا بعضها، وحكم عليه بالنفي مع بعض احرار وزعماء البلاد، منهم عبداللطيف بك الاسعد، محمد بك التامر، الشيخ عبدالله عزالدين، والسيد عبدالحسين شرف الدين...

وفي 5 حزيران سنة 1920 جمع الكولونيل نيجر علماء جبل عامل واعيانه في صيدا، وقد ضمّ هذا الاجتماع الشيخ احمد رضا والشيخ عبدالحسين صادق، وفضل الفضل، والشيخ سليمان ظاهر والسيد محمد جابر والسيد يوسف الحاج علي ويوسف بك الزين، كما ضمّ ايضا من كان في صيدا من وجوه الشيعة واعيانها ومن وجوه اهل السنّة والمسيحيين بلغ عددهم اكثر من 200 شخص، القى عليهم نيجر خطابا شديد اللهجة، وجهه الى الشيعة، ثم تلا عليهم الاحكام قائلا: «ان الحكومة يسوؤها ان يحكم على وجهاء الشيعة بهذه الاحكام الصارمة، لكنهم هم الجناة على انفسهم، وهذه خلاصة الاحكام.«...

{احرار البلاد بين الاعدام والنفيّ{

وقد حكم يومها بالاعدام على رؤساء «العصابات» ومسبّبي الحوادث الطائفية في جبل عامل، منهم صادق حمزة، احمد المحمود بزي، محمد التامر، عبد الحميد بزي، يوسف ظاهر، وادهم خنجر...

وحكم بالنفي على كامل بك الاسعد والسيد عبد الحسين شرف الدين والحاج محمد سعيد بزي وراشد عسيران ومحمد الحاج حسن عبدالله واخوته.

وبعد ان تلا نيجر هذه الاحكام، قال: «ان الحكومة اعدمت جميع الثوار الذين حاولوا متابعة حركاتهم اثناء وجود الحملة وعددهم يقدّر بثلاثين»، ثم القى عليهم شروط فرنسا، التي اوجب فيها على العامليين ان يتحمّلوا اثقال التعويضات عن الخسائر التي ولّدتها هذه الحوادث، وبعد ذلك قرأ على الحضور شروط الجنرال غورو، وهي تنصّ على التعهّد بجمع السلاح وحماية المسيحيين وارجاع ما لم يتلف من المنهوبات، ثم التعويض وقدره مائة الف جنيه ذهبا تستعمل للتعويض على الذين سلبوا او نكبوا. وهذه الغرامة توزع على القرى بمعرفة المتصرّف والقائمقامين بشكل يناسب ثروتها ومبلغ اشتراكها في الحوادث... وهكذا، فان نجاح الحملة الفرنسية في اجتياحها لجبل عامل، وفي القضاء على المقاومة سهّل لفرنسا ضمّه الى دولة لبنان الكبير سنة 1920.«

وامام هذا الواقع الصعب، ترك كامل الاسعد البلاد منتقلاً الى دمشق «فأقام فيها الى ان حدثت واقعة ميسلون (في تموز 1920)، وسقطت الحكومة العربية السورية، وسافر الملك فيصل الى اوروبا، فغادر كامل بك دمشق الى فلسطين، الى ان سوّيت المسألة بمساعي رجال الاكليروس المسيحي مع المفوّض السامي الفرنسي الجنرال غورو. فعاد الى الطيّبة عن طريق النبطية، واستقبل استقبالا لم يسبق له نظير.«

وفي العام 1924 «توفي كامل بك في الطيّبة، ودفن في مدفن خاص بجانب القصر الذي شيّده على الرابية الجنوبية من البلدة.«

اعداد: انطون شعبان - 21

لم يكن لكامل الاسعد ولد ذكر ليرث زعامته فقام بأمرها عبد اللطيف ومحمود. ويبدو ان سياسة الانتداب الفرنسي في تلك الفترة قضت بالعمل على عدم اتفاق وريثا زعامة كامل بك، او انها استغلت خلافهما لتفكيك النفوذ الاسعدي العريض في جبل عامل، ودعم زعامات اخرى، لاقامة «توازن ضعف» بين الجميع، يضمن للمستعمر الفرنسي احكام سيطرته وتنفيذ مآربه، ففي 31 تموز 1925 انتخب المجلس التمثيلي الثاني، وفاز عن لبنان الجنوبي عبد اللطيف الاسعد ويوسف الزين الذي تمتع بنفوذ حكومي واسع آنذاك، من دون ان يؤثر ذلك كثيراً على الزعامة الشعبية التي بقيت لآل الأسعد بشخص عبد اللطيف بك. ومن المعروف ان يوسف بك الزين هو احد احفاد الشيخ علي الزين صاحب شحور الذي لعب دوراً على عهد احمد باشا الجزار.

ومن مشاهير الاسعديين الذين عاصروا عبد اللطيف، وبرزوا في تلك الحقب، علي نصرت بك الاسعد، النجل الأول لشبيب باشا الاسعد بن علي بك الاسعد، وهو ولد في صيدا عام 1881، وتلقى علومه الاعدادية والجامعية العالية في اسطنبول فحاز شهادة الدكتوراه في الحقوق من الجامعة السلطانية. كما تبوأ في اسطنبول (الآستانة) مناصب ادارية وقضائية وسياسية، منها انه في العام 1907 عيّن رئيساً للديوان الهمايوني. وفي العام 1919، وبعد رجوعه الى الوطن، في اثر انتهاء الحرب الكونية الاولى، عين الاسعد مفتشاً لعدلية حلب ودير الزور واورفه. وفي العام 1921 عيّن علي نصرت بك متصرفاً لجبل لبنان فكان اول مسلم شيعي، يتبوأ هذا المنصب. وفي العام 1924 عيّن ايضا مستشاراً، ثم رئيسا لمحكمة استئناف الجزاء في بيروت. وذكر انه كان على درجة عالية من الثقافة ملماً باللغات العربية والتركية والفارسية، فضلا عن انه كان شاعراً موهوباً، نظم بالعربية قصائد ما تزال مخطوطة يحتفظ بها بنوه، منها تشطيره لقصيدة «يا جارة الوداي» لأمير الشعراء أحمد شوقي. وسيأتي الحديث عن المناصب السياسية الكبرى التي احرزها حتى مطلع الثلاثينات من هذا القرن.

في 23 ايار 1926 اعلن الدستور اللبناني، وانهت مدة المجلس التمثيلي الثاني، الذي تحول الى مجلس تأسيسي. وفي 42 ايار انشىء مجلس شيوخ من ستة عشر عضواً معيناً، كان من بينهم عن لبنان الجنوبي فضل الفضل (الصعبي.(

وفي 26 ايار انتخب المجلسان (التأسيسي ومجلس الشيوخ) شارل دباس اول رئيس للجمهورية اللبنانية الاولى.

وفي 31 ايار 1926 اصدر الرئيس الدباس مرسوماً قضى بتشكيل اول حكومة لبنانية برئاسة اوغست باشا اديب، كان من بين اعضائها علي نصرت الاسعد الذي عين وزيراً للزراعة. وقد تبلغ القاضي الاسعد نبأ تعيينه وزيراً، وهو في مكتبه في قصر العدل، كما تبلغ النبأ زميلاه القاضيان الشيخ بشارة خليل الخوري الذي عين وزيرا للداخلية، ونجيب القباني الذي عين وزيرا للعدل.

وفي 18 تشرين الثاني 1927 تشكل المجلس النيابي الاول من 46 عضواً، 30 منتخبون منهم عن لبنان الجنوبي عبد اللطيف الاسعد ويوسف الزين (نائب رئيس المجلس النيابي)، و16 عضواً معيناً، من بينهم عن لبنان الجنوبي فضل الفضل.

وفي15 تموز 1929 تشكل المجلس النيابي الثاني من 45 عضواً، 30 منتخبون، منهم عن لبنان الجنوبي عبد اللطيف الاسعد، ويوسف الزين، و15 معينون، كان من بينهم علي نصرت الاسعد.

وفي 30 كانون الثاني 1934 تشكل المجلس النيابي الثالث من 25 عضواً، 18 منتخبون، منهم فضل الفضل عن لبنان الجنوبي الذي توفي قبل نهاية ولاية المجلس، فانتخب نسيبه بهيج فحلّ محله.

عبد اللطيف «سلطان» الجنوب

عن تلك المرحلة يقول سلام الراسي: «كان ذلك في اواسط الثلاثينات حين كلفني رياض الصلح، مع شاب اسمه كمال الخطيب، نقل رسالة، قال انها على جانب من الاهمية، الى عبد اللطيف بك الاسعد، احد زعماء الجنوب في ذلك الزمان. وما لبثنا ان علمنا ان رياض الصلح الذي كان دائم التحفز لمكافحة الانتداب الفرنسي، انما اراد في كتابه هذا تحريض عبد اللطيف الاسعد على ترشيح نفسه للنيابة عن المقعد الشاغر في لبنان الجنوبي بوفاة النائب فضل الفضل، ضد بهيج الفضل مرشح الانتداب الفرنسي، المدعوم شخصياً من المستشار الفرنسي في صيدا الكومندان باتشكوف، الذي كان مغرقاً في استبداده، يتدخل في كل شاردة وواردة، ولاسيما في الانتخابات النيابية، فيرفع من يشاء ويقصي من يشاء، بدون اي تقدير للاعتبارات الوطنية او الطائفية. وربما لم يكن عبد اللطيف الاسعد في حاجة الى تحريض على خوض معركة انتخابية، وهو زعيم وسليل كرامات موروثة. لكن ما لا شك فيه ان رياض الصلح، كان هو نفسه في حاجة الى مناسبة ترفع فيها شعارات وطنية في جنوب لبنان، حتى لو كانت المناسبة معركة انتخابية محسومة سلفاً لمصلحة الانتداب الفرنسي. وما ان اعلن عبد اللطيف ترشيحه حتى التفت حوله جمهرة من شبان ذلك الزمان المتأثرين بتوجيهات رياض الصلح، وحولوا معركة عبد اللطيف الانتخابية الى معركة جهاد وطني.«

ويضيف الراسي: «في ذلك الزمان، كانت بلدة بنت جبيل، في اقصى الجنوب، قطب الحركة الوطنية، لذلك وقع

الاختيارعلـيها لتكون منطلقاً لجولات انتخابية متلاحقة، يكون ظاهرها الدعاية لعبد اللطيف، وباطنها تحدي ارادة الانتداب الفرنسـي المتمثل بالمسـتشـار باتشـكوف. وفي موكب بلغ آلافاً من الرجال، تقدّمه رجل اسـمه علي هيدوس، وراح يهتف بلحن الحداء الشعبي:
باشـكوف خبّر دولتك -- سـلطاننا عبداللطيف
باريز مربط خيلنا -- ورصاصنا قلّط جنيف
وراحت الجماهير تردّد وراء علي هيدوس «باريز مربط خيلنا»، على مسامع العملاء والجواسيس المندسين بين الجماهير، وتتحدى المستشار الواسع الاقتدار بقولها «باشكوف خبّر دولتك، سلطاننا عبداللطيف.«

قصيدة الامير شكيب ارسلان في رثاء كامل بك الاسعد
هوى لفقدك ركن الشرق واضطربا -- يا كامل من يعزّي بعدك العربا
كل المصائب يفني الدهر شدّتها -- الا رداك فيفني الدهر والحقبا
تلقى النوازل بالافعال صادقة -- والناس في الخطب تسدي القول والخطبا
لو كنت مع حاتم الطائي في زمن -- ما نال في الكرم الاسم الذي كسبا
هل عندكم قومنا عن كامل خبر -- فقد اتانا نبا ان قد نأى ونبا
كانت بكاملكم ارجاء عاملكم -- تتيه عجبا على الدنيا ولد عجبا
قالوا عميد بني النصّار قلت لهم -- بل ركن كل امرئ في يعرب انتسبا
لهفي على كامل الاوصاف كيف ثوى -- ذاك المحيا ظلام الرّمس واحتجبا
لهفي على السيد الغطريف تحرمه -- طوائف طالما استكفت به النوبا
لهفي على الكامل الفذ الذي فقدت -- به الورى المثل الاعلى لمن وهبا
على الذي لو قضيت الدهر تصحبه -- لم تلق الا الوفا والصدق والادبا
تقرا على وجهه آيات شيمته --- وتثني قائلا سبحان من كتبا
في كل يوم ارى منه اخا ثقة -- شهما ومن غيره الحساد والرقبا
مهلا بني الاسعد الامجاد خطبكم -- خطب به الوطن المحبوب قد نكبا
تبكي له العرب العرباء اجمعها -- من ساكن مدرا او ضارب طنبا
ولو عقدنا عليه كل شارقة -- مناحة ما قضينا بعض ما وجبا
يا ربّ امطر ثراه كل غادية -- تخضلّ منها بقاع حوله وربى

نموذج من قصائد لم تنشر لعلي نصرت الاسعد
يقول المغفور له علي نصرت بك الاسعد: وقد استفتاني احد العلماء الافاضل قبل وفاته لرحمته تعالى شعرا في جواز الغرام بعد المشيب وعدمه، فنظمت الابيات التالية :
»أيجوز من بعد المشيب هيام -- ام ذاك في شرع الغرام حرام
فلديك اسرار الغرام جميعها -- وصريح حكمك ما عليه كلام
فلتبرز الفتوى فانك عندنا -- قاضي الصّبابة في الغرام امام
واستطرد علي نصرت بك مجيبا حضرة العالم بهذه الابيات من نفس البحر والقافية:

«سؤالك ايها العلم الهمام -- لشخص قد نأى عنه الغرام
بقولك هل يليق العشق عرفا -- بمن فيه المشيب له مقام
ام الشرع الذي اتفقت عليه -- اساتذة الهوى فيه حرام
جدير ان يساق الى ضليع -- بأنظمة الهوى، وبه هيام
ليوردك المناهل صافيات -- بأجوبة على اسس تقام
وليس لذاك اكفى من كمّي -- سميّ محمّد نعم الامام
سليل البسط اكثرنا اختبارا -- واسطع حجة فيما يرام
هو البحر المحيط بكل فنّ -- وفي فتواه يرتفع الخصام
واهديك التحايا عاطرات -- يمازج صفوها مني السلام.

اعداد: انطوان شعبان – 22

يتابع الرّاسي: «وسقط عبد اللطيف الاسعد انتخابيا، بعدما نودي به سلطانا، فارتفع شعبيا، وصار احد رموز الوطنية في لبنان، ولم يطل الوقت، فمات كما يموت الابطال. وعاشت ردة علي هيدوس تلك وتغلغلت في قلوب ابناء الجنوب وترسّخت في ذاكرتهم الشعبية، حتى صاروا يرددونها في كل مناسبة، ولم تلبث ان دخلت في تاريخنا الوطني.«..

وجاء ايضا عن تلك المرحلة انه «كان للاحتلال الفرنسي دور في النهوض الوطني العام في جبل عامل عام 1933، اذ باتت الحركات الوطنية تتصدى علانية لسياسة الانتداب الفرنسي، وكان من ابرز قادتها الشاعر موسى الزين شرارة وعلي بزي، واخرون. وقد تخوفت سلطات الانتداب يومها من اندلاع شرارة المقاومة فسارعت لتعيين المستشار بتشكوف حاكما على جنوب لبنان حيث واجه بالعنف المد الوطني واعتقل عددا من قادة الراي فيه.

وفي ذلك الوقت شغر احد المقاعد النيابية في الجنوب بوفاة النائب فضل بك الفضل، فبادر نسيبه بهيج الفضل الى تقديم ترشيحه خلفا له. وكان سيد الطيبة عبد اللطيف الاسعد الذي لم يكن يحظى برضى السلطة الفرنسية، قد تقدم بترشيحه الى هذا المقعد بعد ان حظي بتشجيع ودعم الحركات الوطنية تحت شعارات وطنية مناهضة للاحتلال، متحديا سلطاته، وتحديدا سلطة المستشار بتشكوف.«

وعن هذا المستشار ذكر انه «كان شخصية قوية وذكية، يتمتع بثقافة ومرونة الى جانب صلابته العسكرية كونه برتبة كومندان. وكان مثالا للغطرسة والاستبداد، وهو من اصل روسي ويقال ان والده هو الكاتب مكسيم غوركي وكانت يده اليسرى مقطوعة، فقد فقدها اثناء معركة حربية، وكان يحظى بثقة المفوض السامي الفرنسي الذي منحه صلاحيات واسعة يتصرف بموجبها كما يشاء. وكانت له الصولة والجولة في الدوائر الرسمية في تلك الايام بحيث كان الراغبون في تعاطي السياسة في الجنوب ومسايرة السلطة الفرنسية الحاكمة، يضطرون للمثول امامه كي يشهد بهم خيرا اذا اراد امام المفوض السامي في ذلك الحين الكونت دي مارتيل«

وعلى رغم سقوط الاسعد وفوز مرشح الانتداب «فقد اثبتت المواجهة مع الفرنسيين ان هناك تيارا وطنيا ما زال يتصدى لهم بالتظاهرات والعرائض، وما الاهزوجة المشهورة «باشكوف خبّر دولتك» الا دليل ساطع على تحدي الناس لسلطة الانتداب، فخلال يوم الانتخاب اتت وفود القرى الى مركز الاقتراع الوحيد في بنت جبيل تتقدمها الخيالة والسناجق والاعلام، وهي تهتف، منادية بعبد اللطيف سلطانا على الجنوب..

ويبدو ان حركة الشباب آنذاك، اي في العام 1935 استشعرت بقوتها، لذلك خاضت الانتخابات بمرشح تصادمي مع السلطة، ولا يجرؤ احد في الجنوب على قبول مثل هذا الترشيح، فينصح رياض الصلح باقناع عبد اللطيف الاسعد بخوض المعركة، وكان هذا الاخير قد هجر بلدته الطيبة وسكن في بلدة هونين بعيدا عن اي طموح سياسي. وكان راي رياض بك انذاك انه لا يمكن محاربة ابناء العائلات الا بأندادها. وفعلا ذهب رياض بك التامر الى هونين واحضر خاله عبد اللطيف بك الى بيروت، حيث قابل الصلح وجرى ترتيب الترشيح وتجنيد الشباب في الجنوب لخوض معركة وطنية بشخص عبد اللطيف الاسعد، فجرى الانتخاب بحماس بالغ من الجماهير ولولا التلاعب بالاصوات لنجح الاسعد، ولكن الانتداب وضع كل ثقله لاسقاطه في هذه المعركة. والقى الشاعر العاملي موسى شرارة في تلك المناسبة قصيدة قال فيها:

لعينيك شبل نصّار المفدى -- شباب لا يروغ ولا يداري
اذا انشدت شاردة رواها -- كما يروي الفقيه عن البخاري
شبابا لو يقاد بألمعي -- عروبي الشمائل والفخار.«...

ولكن لم يكتب لعبد اللطيف بك مزيدا من العمر ليتابع معركة استرجاع الزعامة والسلطة في جبل عامل «اذ توفي في العام 1936، وقد حشدت سلطات الانتداب في حفل تأبينه كبار موظفيها من وزراء ومدراء ومحافظين وقائمقامين وضباط جيش ودرك، لتجعلها حفلة رسمية تحت رعايتها. وقد القى في هذه المناسبة الشاعر شرارة قصيدة قال فيها:

نضام ونقذي منهم في ديارنا -- وان نشتكي قالوا عصوا وتمردوا
لهم ان يبيدونا وان يفتكوا بنا -- لهم ان يقولوا ابعدوهم فنبعد
ولكنهم لا يستطيعون ان نرى -- مظالمهم تترى علينا ونحمد
فقولوا لهم ما شئتم لا يضيرنا -- سواء لدينا سخطهم والتودد
فان الردى اشهى لنا من معيشة -- يعلى بها وغد ويخفض سيد«..

{مشاهير اسعديّون آخرون{

بعد وفاة عبد اللطيف بك، انتقلت الزّعامة في جـبل عامل الى نجله احمد بك الاسعد، هذا الزّعيم الكبير الذي التصق اسـمه بالوجدان الشّعبي العاملي ودخل قلوب النّاس بما يشبه السحر او الاسطورة كما يقول معاصروه ويضيفون انه احتلّ الذاكرة الشـعبية الجـنوبية كما ولا احد. وقبل المباشرة بتفاصيل سيرة احمد بك التي

سنــختم بها رحلـتنا في جذور تاريخ ال الصّغير، لا بدّ من التوقّف للحديث في محــطّة قصيرة عن سير بعض الشخصيات الاسعدية التــي عاصرت عبد اللطيف بك ونجله احمد واســتمرّت بعد وفاتهما متابعة نشاطها العام، منها علي نصرت بك الاسعد الذي جاء عنه فضــلا عن المســؤوليات التي تولاّها انه كان كما والده شبيب باشا، على جانب من التقوى والورع، وقد مرّت ترجمته ولأنجاله ادوار مختلفة في حقول الشأن العام، وهم:
سعود، حكمت الذي تقلّد وسام المعارف، وله مقالات وابحاث فكرية في الصحافة اللبنانية والمصرية، والقاضي نصّار رئيس محكمة التمييز في بيروت في اواخر الثمانينات، والدّكتور وائل. ويمارس اليوم نشاطا ديبلوماسيا من هذا الفرع الاسعدي نصرت حكمت الاسعد، سفير لبنان في اليمن، ثم بلغراد، فسيول مؤخرا.
ويعتبر نزيه نجل شبيب باشا الاسعد اليوم كبير السنّ في الاسرة الاسعدية.
ومن الفرع الاسعدي عينه، اي الفرع المتحدّر من علي بك الاسعد (فرع الزرارية)، لعب سعيد الاسعد دورا سياسيا، وهو ولد عام 1928 في الزارية، والده حسيب بن ناصيف باشا الاسعد. تلقّى علومه الثانوية في مدارس الفرير والمقاصد في طرابلس وصيدا. وتخرّج طبيبا جرّاحا من جامعة مونبيليه في فرنسا. وفضلا عن عمله الطبّي، مارس الدكتور سعيد العمل الديبلوماسي سفيرا في بغداد من العام 1960 حتى العام 1963، وفي عمان من العام 1963 حتى العام 1976. ومارس ايضا الدكتور سعيد العمل الاداري، حيث عيّن مديرا عاما لوزارة السياحة من العام 1976 حتى العام 1970. وعاد الى العمل الديبلوماسي سفيرا في المغرب من العام 1970 حتى العام 1978، ثم سفيرا في سويسرا حتى العام 1984، فسفيرا في بلجيكا والمجموعة الاوروبية من العام 1985 حتى العام 1992.
وفي العام 1992 انتخب الدكتور الاسعد نائبا عن منطقة مرجعيون ـ حاصبيا، وهو ترشّح آنذاك ضمن لائحة تكتّل التحرير الذي عاد فانفصل عنها. وفي انتخابات 1996 ترشح الاسعد ثانية، ولم يحالفه الحظ، ولكنه على رغم التحالفات الانتخابية التي تغيّرت في الساعات الاخيرة من المعركة، ولم تكن لصالحه، نال نحو 60 الف صوت، الامر الذي لفت يومها المراقبين.
{رضا بك التّامر{
وعرف من الدوّحة الوائلية، من آل علي الصّغير في الفترة ما بين مستهلّ الثلاثينات واواسط السبعينات القاضي رضا التّامر، وهو «ولد عام 1906 في مزرعة كفردجال بجوار النبطية، ثم انتقل مع اهله، وهو طفل الى قرية تولين بقضاء مرجعيون، والده محمّد التّامر، ووالدته خديجة خليل الاسعد. عيّن له والده مدرّسا خاصا في تولين هو حسيب الاسعد، ثم مدرّسا بيروتيا علّمه مبادئ التركية والفرنسية. وحين زار جمال باشا خاله كامل بك الاسعد في الطيبة، في اواخر تــموز 1915، ألقى رضا وابن خاله الثاني احمد عبد اللطيف الاسعد خطبتين بالتركية بين يدي الباشا. وفي اواخر العام 1918 عيّن والده قائمقاما على مرجعيون حين دخلتها القوات الفرنسية محتلة، ولكنه نحّي بتهمة التقصير في الدفاع عن مركز القضاء عندما هاجمه عرب الشّرق سنة 1919، فاضطرب حبل العلاقة بينه وبين الفرنسيين، واتخذ موقفا حائرا بين استرضائهم ومقاومتهم بالسلاح. واثناء الحملة التي قادها الكولونيل نيجر على جبل عامل، بعد حوادث دردغيا وعين ابل وصور وغيرها، قصفت دار محمد التامر بالمدفعية وهدم جانب منها. وقد امضى رضا، مع والده وخاليه كامل وعبداللطيف وابن عمته الثائر ادهم خنجر الصعبي ورجالهم، اشهرا في الجولان ثم في فلسطين (بعد ميسلون)، تخوفا من انتقام السلطة العسكرية الفرنسية، ثم عاد ليستقر مع اهله في صيدا، حيث الزمت السلطة والده بالاقامة، وذلك بعد صدور العفو عن المحكومين السياسيين. وفي العام 5291 سافر رضا الى باريس لدراسة الحقوق، بعد ان تقلب بين مدارس عدة في صيدا وبيروت. وبعد اربع سنوات من سفره الى فرنسا، كان التامر اول عاملي شيعي ينال شهادة الحقوق من جامعة اوروبية. وبعد عودته الى الوطن مارس المحاماة في بيروت شطرا من الثلاثينات، وكانت زوجته الفرنسية اول امرأة تقبل في نقابة عربية للمحامين، وفي عام 4391 عين قاضيا في محكمة بيروت البدائية المختلطة. وقد لبث في سلك القضاء نحوا من ربع قرن تقـلب خلاله في مناصب مختلفة، فكان عضوا في محـكمتي جبل لبـنان والبقاع البدائيتين (1934 - 1935). ثم الحق بالنيابة العامة لدى محكمة بيروت البدائية (1935) ثم اصبح قاضي تحـقيق منـتدبا في جـبل لبنان (1936) ثم ملحقا بمديرية العدلية، فـمعاونا منـتدبا للنائب العام لدى محكمة بيروت البدائية، فقاضيا للتحقيق في بيروت (1937). ثم ثبت قاضيا في بيروت، فمستشارا من الدرجة الاولى في محكمة الاستئناف (1939). وانتدب مفتشا للمـحاكم الشرعية الجعفرية (1943). ثم عيّن رئيس قسم فرئيس غرفة من الدرجـة الـثالثة في محــكمة الاستئناف (1944). ثم اصبح مفوضا للحكومة لدى مجلس الشورى (1947). ثم عين مــحاميا عاما اول في محــكمة الاستـئناف، ثم اعيد الى مجــلس الـشورى في السنة نفسها (1948). وما بين العام 1948 والعام 1949 عين عضوا في لجــنة العـفو، ثم انتدب محاميا عاما اول عند الاقتضاء. بعدها عين مستشارا في الغرفة الادارية لدى محكمة التمييز، فرئيسا لغرفة الجزاء الاستثنائية، فعضوا في المجلس العدلي (1950). ثم رقي الى درجة مستشار من الدرجة الاولى في محكمة التمييز، ثم عين محاميا عاما لدى المحكمة نفسها، فعضوا في المجلس العدلي مرة اخرى (1951)، واخيرا اعيد مفوضا للحكومة لدى مجلس الشورى (1953). وقد كلف القاضي التامر خارج نطاق وظيفته مهام مختلفة، فكان عضوا في المصلحة الوطنية لنهر الليطاني، وانتدب لدرس مشاركة المغتربين اللبنانيين في تمويل المشروع.... وقد حاز اوسمة عدّة آخرها وسام الارز الوطني من رتبة ضابط اكبر.«

اعداد: انطوان شعبان – 24

في ولاية الرئيس بشارة الخوري التي بدأت مع عهد الاستقلال، تألف المجلس النيابي الثاني، في 25 ايار 1947، واستمرت ولايته حتى 20 آذار 1951، وبلغ عدد اعضائه 55 نائبا. وقد خاض احمد الاسعد المعركة الانتخابية يومها على رأس لائحة مؤلفة من عشرة نواب، هي حصة الجنوب من ذلك المجلس، وفاز مع ثمانية نواب من لائحته، وكان الفائزون عن الجنوب: احمد الاسعد، رياض الصلح، يوسف الزين، محمد صفي الدين، محمد الفضل، عادل عسيران، محمد علي الغطيمي، ابراهيم عازار، نصار غلمية وجوزف سكاف.

وفي عهد الرئيس الخوري ايضاً، جرى انتخاب المجلس النيابي الثالث في عهد الاستقلال، في 5 حزيران 1951، ودامت ولايته حتى 3 ايار 1953، وكان عدد اعضاء هذا المجلس 77 نائباً، وحصة الجنوب منهم 15 نائباً، وكانت «الحياة السياسية في هذه الفترة تشهد ازمة حادة وتحديات كبيرة، وخاصة على الصعيد العائلي، فخاض احمد الاسعد الانتخابات على رأس لائحة من 51 مرشحاً ضد تحالف القوى الأخرى التي تجمّعت في لائحة واحدة منافسة له. وكان ابرز المتحالفين ضده آل عسيران والخليل والزين. وبنهاية الانتخابات فاز الاسعد مع لائحته الانتخابية كاملة، وقيل آنذاك «دخل احمد الاسعد مجلس النواب ووراءه 14 نائباً والسائق.«

وكانت اللائحة مؤلفة من: احمد الاسعد، رياض الصلح، صلاح البزري، المير سهيل شهاب، حسين العبدالله، سليمان عرب، علي بزي، الدكتور علي بدر الدين، محمد صفي الدين، محمد علي غطيمي، محمد الفضل، رشاد عازار، مارون كنعان، الياس طرابلسي، ونقولا سالم.«

{احمد الأسعد رئيساً للمجلس النيابي{

وفي حزيران 1951 انتخب الاسعد رئيساً للمجلس النيابي خلفاً لصهره الرئيس صبري بك حماده، واستمرت ولايته حتى آب 1957.

وفي 13 آب 1953 انتخب المجلس النيابي الرابع في العهد الاستقلالي، وكان عدد اعضائه 44 نائباً، ويومها «أعيد تقسيم الدوائر الانتخابية بحسب خارطة سياسية جديدة. فترشح احمد الاسعد عن دائرة بنت جبيل، ورشح نجله كامل الاسعد عن دائرة مرجعيون، وفاز الاثنان». وفضلاً عنهما فقد مثل الجنوب في الندوة البرلمانية، المرشحون الآخرون الفائزون، وهم: نزيه البزري، كاظم الخليل، يوسف الزين، نقولا سالم، عادل عسيران ومارون كنعان. وقد جرت انتخابات هذا المجلس في عهد الرئيس كميل شمعون الذي كان تولى سلطاته الدستورية في 23 ايلول 1952.

وفي 30 حزيران من العام 1957، وقبيل اندلاع «ثورة 1958»، في عهد الرئيس كميل شمعون، جرت انتخابات المجلس النيابي الخامس، وتألف من 66 نائباً، فكان الفائزون عن الجنوب: كامل احمد الاسعد، علي بزي، كاظم الخليل، يوسف الزين، نقولا سالم، معروف سعد، جان عزيز، عادل عسيران، محمد الفضل، فريد قوزما، ورضا وحيد. وقد ترأس هذا المجلس عادل عسيران من آب 1957 حتى تشرين الاول 1959. في هذه الانتخابات «خاض احمد الاسعد المعركة عن دائرة بنت جبيل، وشهدت تدخلا سافراً من السلطة ضد بعض الرموز الوطنية، ليس في الجنوب فحسب، بل في جميع المناطق اللبنانية، وهذا الامر مهد لاحداث 1958، وخسر احمد الاسعد أمام منافسه رضا وحيد، وهي المرة الاولى التي يفشل بها الاسعد في الانتخابات، بينما فاز نجله كامل الاسعد عن دائرة مرجعيون.

وفي عهد الرئيس فؤاد شهاب، اثر انتهاء الثورة جرت الانتخابات النيابية في 18 تموز 1960، وتألف المجلس النيابي السادس من 99 نائباً، واستمرت ولايته حتى 8 ايار 1964. واما الفائزون عن الجنوب، فكانوا أحمد الأسعد وسعيد فواز (عن دائرة بنت جبيل)، علي بزي، اسعد بيوض، خالد شهاب، ابرهيم العبدالله (عن دائرة مرجعيون)، معروف سعد (عن صيدا)، يوسف سالم وعادل عسيران (عن الزهراني)، جعفر شرف الدين ومحمد صفي الدين وسليمان عرب (عن صور)، يوسف الزين، رفيق شاهين وسميح عسيران (عن النبطية)، نقولا سالم، باسيل عبود، وجان عزيز (عن جزين.(

وكانت تلك الانتخابات، آخر معركة يخوضها أبو كامل، اذ وافته المنية في آذار من العام 1961.

{مشاركته في السلطة التنفيذية{

وفي عهدي الرئيس بشارة الخوري (21 ايلول 1943 ـ 19 ايلول 1952)، وكميل شمعون (23 ايلول 1952 ـ22 ايلول 1958)، شارك الأسعد في معظم الحكومات التي تعاقبت ففي 9 كانون الثاني 1945 تألفت حكومة برئاسة عبد الحميد كرامي، فعين احمد الاسعد وزيراً للاشغال العامة والصحة.

وفي 22 آب 1945تألفت الحكومة برئاسة سامي الصلح، وعين الاسعد وزيراً للزراعة والدفاع الوطني.

وفي 11 نيسان من العام 1946 تألفت الحكومة برئاسة سامي الصلح، وعين الاسعد وزيرا للزراعة والدفاع الوطني.

وفي 26 تموز 1948 تألفت حكومة برئاسة رياض الصلح وعين الاسعد وزيراً للاشغال العامة.
وفي تشرين الاول 1949 تألفت حكومة برئاسة رياض الصلح ايضا، وعين الاسعد وزيراً للاشغال العامة.
وفي 25 آذار 1950 تألفت حكومة برئاسة عبدالله اليافي، ومثّل الاسعد، النائب محمد صفي الدين، فعين وزيراً للبريد والبرق والانباء.
وفي 11 شباط من العام 1952 مثل حسين العبدالله الرئيس الاسعد في حكومة سامي الصلح.
{من وقائع سيرته في الزعامة الشعبية{
في سيرة الزعيم الجنوبي احمد الاسعد احاديث وحكايات ووقائع، احتلت الذاكرة الشعبية الجنوبية، واللبنانية عموماً، تؤكد ما وصف به، وما جعله يعتبر الزعيم الشعبي الاول في لبنان، في نظر كثيرين من عارفيه ومعاصريه من سياسيين وعامة، فكان لا بد من ان نعرض لبعض ما نشر منها، في ختام ملفنا عن تاريخ ال علي الصغير.
فقد جاء عن تبشير عمه كامل خليل الاسعد بزعامته، انه في اواخر ايام هذا الأخير «زاره حمود جلول، وحيدر فران للاطمئنان عن صحته بعد ان اعياه المرض، فبادرهما كامل بك بالقول: «جايين تودعوني».. فقالا له: «العمر الطويل يا بك»، فقال: «بعد موتي سيتزعم عبداللطيف (شقيقه)، ولكنه لن يكون على قدر المسؤولية، وكذلك الأمر بالنسبة لأخي محمود. فالزعيم هو احمد، يمتلك كل مميزات الزعيم بذكائه ودبلوماسيته وحسن تصرفه، وحبه للناس».. وآنذاك لم يكن يزيد عمر احمد الاسعد عن 22 عاماً.«
وذكر ايضاً انه «عندما زار جمال باشا قرية الطيبة، ونزل ضيفاً على كامل الاسعد، القى احمد الاسعد قصيدة رائعة باللغة التركية، وكان شاباً يافعاً لا يزيد عمره عن السبع عشرة سنة. القصيدة تلك ادخلت السرور الى قلب جمال باشا وكامل بك لدرجة ان الزعيم كامل قرر يومها بأن لا يزوج ابنته فاطمة سوى لابن شقيقه احمد، رغم انها تكبره بعامين، فقد كان احمد قوي الحجة بارعاً جداً في القاء الخطابات الارتجالية، وفي اكتساب محبة الناس لدرجة ان عمه قد اصطفاه ليكون الزعيم بعده.«
وعن بداية عهد زعامته انه «عام 1936 اعتقل الفرنسيون مجموعة من رجال المقاومة في جنوب لبنان من الذين كانوا يقومون بعمليات عسكرية في فلسطين ضد الانكليز، وفي لبنان ضد الفرنسيين. علم احمد الاسعد بمكان سجن المقاومين، فجند مجموعة من جماعته وهاجم سجن بنت جبيل، وتمكن من الافراج عن حوالى 300 سجين. يومها في بنت جبيل، هجم الأهالي على الجنود الفرنسيين وصاروا يرشقونهم بالحجارة، فسقط حجر على رأس احمد بك، وجرح جرحاً طفيفاً. وآنذاك كان مركز الزعامة فارغاً بعد وفاة عبد اللطيف الاسعد، فصار الناس يحوربون تقديراً لما فعله احمد الاسعد: «مات الزعيم يحيا الزعيم، احمد زعيم بلادنا». وهي المرة الاولى التي قام الناس فيها بتكريس احمد بك زعيماً عليهم.«
ولكن الأسعد كان زعيماً، على ما يبدو، من طراز نادر، فقد اعترف بأن زعامته قامت بفضل شعبه، وانه مدين لهم، ومرتهن لمشيئتهم لا العكس. وقد ترجم هذا الاعتراف وهذه القناعة، خلافاً لكثيرين، افعالاً وممارسات «فكان احمد بك يحب معاشرة الناس البسطاء والتعاطي معهم. فكان كلما توجه من بيروت الى الجنوب يتوقف مرات عدة، ويطلب من سائقه ان يقل معه الناس التي تريد الذهاب الى بلداتها. وكان «شوفير» الزعيم يسرع في القيادة في الطرقات العامة، وحين يصل الى القرى يبطىء، وهكذا يسلم البك على الناس في الطريق. فمرة سأله سائقه: «الا تتعب؟! تقول بأنك تأتي الى الطيبة لترتاح، ولكنك لا تهدأ او تكل سوى عند النوم». فقال له الأسعد «لولا هؤلاء الناس، لما كنت زعيماً. فقد تعلمت منهم الحكمة والذكاء. اما وقت راحتي الحقيقية فهو حين اسرح في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، او حين احتسي القهوة في مقهى الباشا.«

اعداد: انطوان شعبان- 25

أحمد بك الأسعد رفض الإختلاء بالديبلوماسيين وأصر على مُقابلتهم أمام مُناصريّه

سأله يوسف بك : كيف تستقبل اصحاب «البساطير» فأجابه : لولا البساطير لم نرَ البرانيط

اعداد : انطوان شعبان

يروي معاصرو احمد الاسعد انه «في خلال زيارة عاجلة قام بها دبلوماسيون ومسؤولون الى دار أحمد بك، وكان ديوانه يعج بالزائرين الجنوبيين، طلبوا منه الجلوس في مكان منعزل ليتمكنوا من التحادث معه بصراحة وحرية، قال الاسعد، بعد ان اصر على البقاء في مكانه وعلى كرسيه الصغير المصنوع من القش والخشب: بل نتحادث هنا ونتكلم امام هؤلاء الناس الدراويش... وبالتالي يحق لهم ان يستمعوا الى الأحاديث السياسية.«

وفي واقعة اخرى لها دلالاتها المعبرة ايضا بهذا المعنى يقول احد معاصريه انه في خلال «حفل سياسي عام اقيم في دار الطيبة في منزل احمد بك، وكان يحضره سفراء الدول الخمس الكبرى في لبنان، ووفود رسمية. وسائر نواب دول الـ1947، من بينهم يوسف بك الزين، بدا العامة من الناس بالتوافد من اقاصي جبل عامل لاستقبال الوفود مع احمد بك، من عيناتا وميس الجبل وشقرا وحولا. وجميعهم ينتعلون في ارجلهم «بساطير.«

لفت الامر يوسف بك الزين، فلما استفسر ذلك من احمد بك بتعجرف سائلا اياه لماذا ينتعلون هذه «البوطات» الوسخة، استاء احمد بك من سؤال الزين، وقال بسرعة بديهية: «لولا هالبساطير ما كنا شفنا البرانيط»، وهو يقصد قبعات السفراء الاجانب والنواب.

{روايات معاصريه{

ويروى عن احمد الاسعد انه لم يتوان عن خدمة الناس لحظة واحدة، ولم يحل المرض والوقت المتأخر من الليل دون تلبية حاجاتهم، «فيقول الشيخ مهدي صادق: في ما كنت اسهر احدى الليالي عند احمد بك، طرق باب منزله ضيف وألح بطلب رؤيته. اثناءها كان احمد بك يعاني من آلام شديدة بسبب نوبة القرحة، لذلك طلب مني تولّي امر الرّجل. وبالفعل نزلت عند رغبته وقابلته. ما هي الا لحظات حتى دخل الاسعد مرحبا بالضيف باسمه ـ سأله عن حاجاته، فقال الزائر ما مفاده ان احد الحواجز الامنية اعترضت طريقه وسلبته حاجاته، فهدّده عناصر الحاجز بأنه سيبلغ احمد بك، وأتى على الفور لعنده رغم آلامه الشديدة، اتصل الاسعد، وبكل طيبة خاطر بأحد أصدقائه المسؤولين، فوعده خيرا. وما هي الا ساعة، حتى حلت قضية الضيف الزائر وذهب لاستلام حاجياته. قبلها اعتذر منه الاسعد واستأذنه بسبب الوجع الذي كان يعتصره. يومها قلت لأحمد بك: كان يمكنك تجنب لقائه في هذا الوقت المتأخر من الليل، خاصة وانت مريض. فكان جوابه العفوي: يا شيخ صادق، انسان يقصدني ليلا لانه واثق من قدرتي على خدمته. انه يحبني لذلك لا استطيع رده خائبا، ولا استطيع ان اؤجله حتى الغد، فيتكلف مجددا عناء مشقة الطريق. الم تحفظني بعد، لا اقدر ان ارد سائل.

{نادرة زينب{

وفي واقعة مماثلة انه «فيما كان احمد بك جالسا مع عدد من انصاره واعوانه في منزله في الغبيري، جاءته إمرأة تدعى زينب، وهي من بلدة قبريخا، مبتورة الرجل، سألها البك عن حاجتها، فقالت: روحت رجلي فيما كنت احطب، طلب الاسعد على الفور من جماعته ان يصطحبوا السيدة زينب الى منطقة البسطا عند رجل ارمني ليصنع لها رجلا اصطناعية. وما هي الا ساعة، حتى عاد السائق سلمان سليم محبوبة والمرافق نعمة رميتي الى منزل البك قائلين له بأن الرجل طلب مبلغا كبيرا من المال، حوالى 125 ليرة، وارادوا ان يستشيروه قبل الدفع، سألهم الاسعد عن زينب، فقالوا: تركناها في السيارة. وكانت زينب ثقيلة الوزن. سألهم: عندها اقارب في بيروت؟ قالوا: لا. قال: طلعوها لنســتضــيفها هنا.. صــمت الشباب. ووقعوا في حيرة من امرهم. فقال احدهم للبك بامتعاض: لكنها ثقيلة الوزن، وقد كسرت لنا ظهورنا. انفعل الاسعد، وقال: اما احملها انا على ظهري واما انتم. وهم بالنزول عندما لاحظ تقاعسهم ، طالبا من السيد كاظم هاشم مد يد المساعدة لهم.

حينذاك اضطر الشباب الى التحرك، نزلوا وحملوها وادخلوها الى عند السيدة ام كامل. ولبثت عنده فترة العلاج، اي ريثما اصلح لها الرجل الارمني رجلها. وفي اليوم الرابع قال لها احمد بك وهو يودعها: ليكي يا زينب، بكرا بدك تتجوزي، مش كل ساعة تلبسي وتشلحي الرجل الاصطناعية، هيك بتخرب. واذا خربت ما بتعودي تلاقي حدا يتزوجك.

وعن تواضعه العفوي الصادق، روي انه «في احتفال تأبين السيد عبد الرضا آل ابرهيم في الميرية، وهو ناقد ادبي، حضر احمد الاسعد بنفسه للتعزية، ولم يرسل ممثلا عنه لأن المنزل يخص علماء دين. وصل احمد بك فوجد الدار محتشدة بالناس، بحيث لم يجد مكانا ليجلس فيه توجه الى «التينة» وعلى مدخل الدار. وشمّر عن رجليه، وقعد على التراب ولم ينتظر ليهيئوا له مكاناً. وهكذا افسح الجميع الامكنة دون تراتبية او اعتبارات طبقية.

اعداد: انطوان شعبان- 26

روى احد معاصري الرئيس الاسعد، انه «في احدى زياراته الرئيس الشيخ بشاره الخوري، يرافقه مختار بلدة «القنطرة» دخلا الى دارة الرئيس فوجداه يلعب «طاولة الزّهر» مع رقيب في الجيش اللبناني، وكان يرتدي «الروب دي شامبر»، وكعادته وبعفويته المعهودة جلس الاسعد بقرب الرئيس الخوري، وليس كما يقتضي البروتوكول الاجتماعي، في الصالون المعدّ لاستقبال الشخصيات الزائرة.

وفي خلال حديث الاسعد مع الخوري قال: «اذا انصفنا القول للتاريخ، فأنت حقا شيخنا ورئيسنا»، فأجاب الشيخ بشاره قائلا: «بل اذا انصفنا التاريخ، تكون انت شيخنا وزعيم لبنان. فنحن عندما يترك احدنا منصبه الرئاسي، ينفضّ عنه المؤيدون، فلا يبقى لنا سوى القليل القليل، اما انت يا احمد بك فلك في جبل عامل اكثر من 08 الى 09 الف مؤيد، لذلك انت زعيم وشيخ لبنان، سواء كنت رئيسا لمجلس النواب ام لم تكن.«

ومن الاحاديث المنقولة عن رواتها الذين عاصروا احمد بك انه في العام 1951، بعد فوز لائحته في الانتخابات النيابية كتب احد سائقي «البوسطات» العمومية التي كانت تنقل الركاب من الجنوب الى بيروت، على بوسطته شعارا بالخط العريض: «الـ 14 لا يخيب»، وذلك للتعبير عن فوز لائحة الاسعد بكامل نوابها الـ 14. فلم يكن من احدى دوريات قوى الامن الداخلي الا ان نظموا بحق السائق محضر ضبط، واخذوا منه دفتر القيادة واوراق الشاحنة، فغضب، وتوجه الى المجلس النيابي في ساحة النجمة، ناقلا لاحمد بك، ما حصل معه، وفي الحال اتصل الاسعد بضابط الدورية في صيدا، وطلب منه ارسال عناصرها الى بيروت للقائه.

وبالفعل حضر الدركيون الى المجلس، وما ان شاهدوا البوسطة متوقفة امام مبنى البرلمان، حتى وقعوا في الارتباك الشديد، فماذا عساهم يقولون للرئيس؟!

ولكن سرعان ما تبدّد خوفهم عندما التقوه، فرحب بهم وسأل الاول: منذ متى عيّنت؟ فأجاب: خمس سنوات. قال الرئيس: ورغم ذلك ما زلت مجرد دركي، سأعمل اذا على ترقيتك الى رتبة عريف. وكرر الامر نفسه مع الثاني والثالث، ولم يأت على ذكر البوسطة وسائقها. وهكذا صار هؤلاء يرافقون الرئيس اينما ذهب عرفانا منهم بجميله عليهم.. وصاروا من انصاره ومؤيديه.

ومن الاحاديث ايضا انه عام 1936، في مطلع حياة احمد بك السياسية، و«فيما كان السيد عبد الحسين شرف الدين متوجهاً الى صيدا مع ابنه جعفر شرف الدين لاجل متابعة موضوع صدور احد كتبه، التقى في كاراج صيدا بفتى يافع في الثلاثينات من عمره، يعتمر طربوشاً، ركض الشاب نحو السيد، وانحنى وتناول يده وقبّلها، ثم قبّل جبّته. وفي المقابل بادله السيد احتراما زائدا اثار استغراب نجله جعفر. ولم يكن من ابن الاسعد الا ان طلب من الحاج محمد بزري المسؤول في الكاراج ان يؤخر دوره لصالح السيد شرف الدين، بعد ان دفع اجر الرحلة كاملا، على ان لا تقل السيارة ركابا اخرين. تصرّف الفتى لاقى اعجابا من السيد، فراح يمتدحه على مسمع ابنه جعفر الذي سأل والده عن اسمه وهويته، فقال: انه احمد الاسعد سليل ناصيف النصّار ان كنت تجهله.. هذا الشاب فقير جداً، وانا متأكد من انه سيستدين ليتمكن من العودة الى دار الطيّبة رغم انه دفع عنا اجرة التاكسي. فقال جعفر: ولماذا قبلت ان يدفع عنا؟ فأجاب العلاّمة: «كي لا يزعل ولا اجرح كرامته، فهو من عائلة قاتلت احمد باشا الجزار الذي اضطهد العلماء وظلم الناس، وقدمت في سبيل الدفاع عن كرامة اهالي جبل عامل الشهداء ومنهم ناصيف النصّار وشقيقه وابن شقيقه، لذلك دأبت النسوة في جبل عامل حين يفقدن عزيزا، عليهن ان يندبن ناصيف النصار مع فقيدهن، هذا بالاضافة الى مجالس العزاء التي تقام لندب الامام الحسين واهل بيته.«

» {القنطرة» تتحول الى مناصرته{

وعن قدرته في استمالة المعارضين «ان بلدة القنطرة الجنوبية، كانت بمثابة الخنجر في خاصرة الاسعد، فكانت القرية تكنّ له العداء وتؤيد عادل عسيران. وقد كمن بعض رجالها اكثر من مرة للاسعد بغية الاعتداء عليه. وفي احدى الدورات الانتخابية، وكانت المنافسة في اوجها، قرر بعض الرجال من هونين وعيترون وبارون وبنت جبيل، بقيادة ابو علي اسماعيل وابو علي عليان الاعتداء على احمد بك، فكمنوا له في وادي الحجير، ولكنهم لم يتمكنوا منه، اما هو فكانت ردة فعله، بأن وجه اليهم دعوة لزيارته، واصرّ على حصولها، فأرسل بسيارته الخاصة لكي تقل قادة المعارضين، بعد ان اقنعهم برسالة شفيهة وجهها اليهم عبر موفديه، ومفادها: «تعالوا وتعرفوا علي، فاذا وجدتم بأنني رجل سيىء، ابقوا على عدائكم لي، او نصير اصدقاء، فحضروا اليه واستقبلهم بحرارة ورحّب بهم اشد ترحيب، ما اثار حفيظة احد رجاله، فذكر البك بأن من يرحّب بهم اطلقوا ذات يوم النار عليه بغية، قتله، فأجاب: «هؤلاء اطلقوا النار عليّ حين كانوا يجهلون من أكون، وحين زاروني، ورأيتهم ورأوني صرنا اصدقاء...» وبهذا السلوك تمكن الاسعد من استيعاب خصومة «القنطرة.«

وفي نادرة معبّرة عن مدى روحه الشعبية، انه دخل ذات يوم على ضيوفه الذين ينتظرونه في داره منذ الصباح

الباكر وهو يضحك، فبادر الضيوف يسألون: ما الامر ما بك؟ فأجاب: فيما كنت مارا بقرية «رب ثلاثين»، واذ بفلاح عجوز وزوجته يحاولان ربط «الفدّان»، وكما تعلمون كان البرد قارسا فجر اليوم، فما ان امسك الفلاح البقرة بيديه الباردتين حتى جفلت منه، وبدأت تركض نحو الطريق العام بأقصى سرعتها. واضاف يقول: نزلت من السيارة، وقد اشفقت على هذا الفلاح العجوز وزوجته اللذين لحقا بالبقرة من دون ان يتمكنا من الامساك بها. طلبت من ابن محبوبة (احد مرافقيه)، ان يلحق بالبقرة الهائجة، المذعورة فلم يتمكن من القبض عليها، عندها قررت ان انفّذ انا المهمة بنفسي. وضعت طربوشي على الصخرة وعدوت وراءها ورحت اطاردها، فكلما حاولت الإمساك بها، تفلت من جديد «هلكتني هالسايبة»، الى ان تمكنت منها اخيرا وربطتها. شكرني الفلاح، وحدّق بي مليا، ثم قال لي بحيرة وخفر: «احمد بك ام لا» فقلت: نعم انا احمد بك، فنظر اليّ بدهشة قائلا: اين طربوشك؟ مش عيب ان تمشي وسط الناس من دون طربوش وانت رئيس مجلس النواب؟ فذهبت الى الصخرة حيث وضعت طربوشي، فأخذته ووضعته على رأسي وعدت، عندها، انفرجت اسارير الرجل العجوز وضحك واقترب مني وقبّل يدي قائلا: إيه هلّق انت بك بحق وحقيقة.«

{حزب القبضايات{

وفي طرفة اخرى عن عهد احمد بك، وكان قد اسس «حزب النهضة» في مواجهة «حزب الطلائع» الذي اسّسه رشيد بيضون، ان الخلاف احتدّ مرة بين الحزبين، وكان لكل منهما انصاره في اوساط الشيعة، فحزب الطلائع كان يستقطب بخاصة خريجي الكلية العاملية والمثقفين واما حزب النهضة، فكان يضم الطبقات الشعبية وعلى الاخص القبضايات، وكان مركز نفوذه الفعلي يتركز في جبل عامل وتحديدا في منطقة النبطية وقرى صور. وكان المثقفون الطلائعيون يلتقون في المقاهي العامة. وكان القبضاي ابو الفوز دائما لهم بالمرصاد، اذ كان يجول بخيزرانته على مقاهي النبطية ويضرب بها على الطاولات، حيث يجلس الطلائعيون لإرهابهم قائلا: يا أكّالين العدس بقشوره، ما بدنا «طلامي» بالبلد. لقد كان ابو الفوز يجهل بأن الحزب المعادي يدعى الطلائع وليس «الطلامي..«

وفي طرفة اخرى تشير الى وثوق العلاقة الانسانية بين الاسعد وناخبيه، انه «جــــاءه مرة فـــلاح جـــنوبي من قـــرية مركـــبا الى دار الطـــيبة والصالون مليء بالزوار، وكان بمعية الفلاح ابنه الشاب. اصرّ الرجل على رؤية البك، فكان له ما اراد. بعد الترحيب به سأله احمد بك: ما قصتك؟

قال الرجل: ابني حسين؟

اجاب الاسعد: ما به؟

قال: انه بقوة حصان، وقد زوّجته منذ ستة اشهر. لكنه ويا لخجلي «عاجز»، وانا احلم بأن يكون لي احفاد كثر. وزوجته تريد الطلاق منه، فما الحل؟

نادى «ابو كامل» احد اعوانه، قائلا له: اذهب واحضر له الدواء، وغمزه بطرف عينه بإشارة يعرفها.

وما هي غير لحظات حتى احضر الدواء، وهو في الحقيقة بعض العسل ممزوجا بالماء وببعض الاعشاب.

قال الاسعد للرجل: هذا الدواء له مفعول سريع، اعطه لابنك، فتتحسن حاله، واذا اردت يمكنك انت ان تتناوله ايضا.

ذهب الفلاح مغتبطا بما لقيه من علاج يشفي ابنه ويحفظ له كرامته امام زوجته. وكان بالفعل يجهل بأن الدواء هو مجرد كمية من العسل ممزوج بعشبة لا فائدة منها..

وبعد نحو اسبوع، عاد الفلاح، الى دار الطيبة، فقابل البك، وانكبّ على يده ليقبّلها تعبيرا عن امتنانه وشكره، لأن ابنه قد تعافى، و«صار مثل الحصان.«

يا جارة الوادي طربت وعادني -- شوق تأجّج من ضرام هواك
فوعدت نفسي بالوصال فسرّها -- ما يشبه الاحلام من ذكراكِ
»مثّلت في الذكرى هواك وفي الكرى --- كي لا اداوي علّتي بسواك
فجنيت من ثمر الاماني ما زكى -- والذكريات صدى السنين الحاكي
ولقد مررت على الرياض بربوة -- حاكت بطيب اريجها ريّاك
فذكرتُ عهدا قد حلا في روضة -- غنّاء كنت حَيالها القاكِ
»لم ادرِ ما طيب العناق على الهوى -- ابدا وربّ مبدع سوّاك
وجهلت طعما للصبابة في الورى -- حتى ترفّق ساعدي فطواكِ
وتأوّدتْ اعطاف بانكِ في يدي -- فبدا بشكل فاتن مرآك
فاغبرّ وجه الحاسدين تغيّظا -- واحمرّ من خضريهما خدّاك
ودخلت في ليلين فرعك والدجى -- والنفس تصبو لارتشاف لَماكِ
فحسوت من خمر الرضاب ألذّه -- ولثمت كالصبح المنوّر فاك
وتعطّلتْ لغة الكلام وخاطبت -- روحي بمعجز رمزها جفناك
ومذ انتهينا للتفاهم جاوَبتْ -- عينيّ في لغة الهوى عيناكِ

لا امسي من عمر الزمان ولا غد -- ان متّ غير مزوّد برضاك
ولذيذ عيشي سابقا ام لاحقا -- جُمع الزمان فكان يوم لقاكِ

اعداد : انطوان شعبان -27

ثمّة حكايات كثيرة على استيعاب ابن الاسعد خصومه، واستعداده الدّائم لخدمتهم، منها انه «كان علي حسين الصباح والد النائب انور الصبّاح من انصار عادل عسيران، ولكنه في الوقت نفسه صديقا لأبي محمد نحلة الاسعدي حتى العظم. وقد صادف ان وقع علي الصباح في مشكلة، حين كان الاسعد وزيرا للاشغال.

فهو كان يملك ارضا صالحة للعمار، فصادرتها الدّولة في تخطيط الطرق واجحفته حقّه في التخمين، لذلك قصد الصبّاح صديقه ابا محمد نحلة، وسأله التوسّط له عند احمد بك. وفي اليوم التالي قصد الرجلان الاسعد في مكتبه في وزارة الاشغال، وكان مقرّها في شارع المصارف. الصبّاح كان خائفا من ان يمتنع البك عن استقباله، ولكنه سرعان ما فوجئ باستقبال الاسعد الحار له. قائلا: «اهلا اهلا بعلي حسين افندي الصبّاح، بتشرّف وقت ما تريد، المكتب مكتبك».

وبالفعل ساعده في حل مشكلته، ومنذ ذلك التاريخ بات الصبّاح من اشدّ المناصرين للأسعد، وقد قال لأبي محمد نحلة اكثر من مرّة: «يا ضيعان الوقت اللي ضيّعتوا بعيدا عن احمد بك».

وفي واقعة معبّرة عن مدى علاقته الحميمة بالنّاس انه «حين كان وزيرا للاشغال، اجرى معه الحاج علي عبود حديثا صحافيا لجريدة الشمس. وفيما كان عبود يجري المقابلة، فتح الباب فجأة من دون استئذان، ودخل شاب عملاق ينتعل «بسطارا» ملطّخا بالوحل وسروالا اسود وسترة عسكرية. اخذ يد احمد بك وقبّلها، ولكن البك سحب يده كعادته، ثم استأذن الصحافي وتوجّه للزّائر، وبعد ان اطمأن عن صحة زوجته واولاده، سأله عن سبب مجيئه من بلدة هونين الى بيروت، فأخبره القروي ان سقف منزله انهار على الارض، وانه يريد ترميم بيته. وبعد ان سأل الوزير الاسعد ضيفه عن كلفة ايجار البوسطة من الجنوب الى بيروت، وعن ايجار «البنسيون» ليومين، وكلفة المأكل، وبعد ان تأكّد ان ما تكلّفه الشاب ليقوم بزيارته بلغ نحو 30 ليرة لبنانية، قال له: «ألم يكن الاجدر بك ان تصلح منزلك بهذا المبلغ بدلا من ان تتكبّد مشقّة المجيء الى هنا؟

فأجابه القروي الشاب: ابي حمّلني السلام لمعاليك، وانا جئت لأوصل الامانة بهذه المناسبة.

عندها التفت احمد بك، ونادى رئيس الديوان جورج شدياق، طالبا منه ارسال مواد بناء مع بعض العمّال لإصلاح ما تهدّم من منزل هذا السائل بفعل العواصف».

وبعد ان طلب الاسعد من مدير مكتبه ارسال من ينظّف سجّاد المكتب من وحل وتراب «بسطار» الفلاّح الشاب، التفت الى الصحافي عبّود، وقال له: «لا نستطيع اغضاب النّاس لأنهم احبابنا، وبيننا وبينهم مودّة وتلاحم انساني كبير».

كيف تأسّس حزب النهضة؟

وعن تأسيس «حزب النهضة» قال الاسعد انه «قد تداعى مجموعة من الشباب من كبار القبضايات، وعلى رأسهم خضر الجوني (والد الفنّان «شوشو» (وكان يملك كاراج بوسطات في «عصّور»)، ومنهم عبّاس الحاج ابو امين، وحمزة وعاكف السّبع، وبعض ابناء تبنين، منهم شاكر دكروب وحسين حراجلي، للاجتماع من اجل تحسين وضع الطائفة الشيعية في بيروت، اذ كانوا يشعرون بأن ابناء هذه الطائفة مضطهدون فيها، حتى ان رشيد بك بيضون صاحب حزب الطّلائع، قد خسر في إحدى الدورات الانتخابية لأنه اقام مجالس العزاء الحسينية في الكلية العاملية.

فكان ان قصد هؤلاء القبضايات في البدء رشيد بك وشكوا له الوضع، فقال لهم إن الحلّ الوحيد امامهم هو الانضواء في صفوف حزب الطلائع، فعزّ عليهم ردّ بيضون، فكل قبضايات بيروت يتمتعون بحماية الزعماء مثل اليافي والصّلح وفرعون وابي شهلا، وهو يرفض حمايتهم الاّ بشرط الانضواء في حزبه الذي لا يضمّ في رأيهم «رجالا»، اي قبضايات بحسب مفهومهم... خرجوا من لقاء بيضون مستائين وتوجّهوا لتوّهم للقاء احمد بك، فشرحوا له الوضع، ثمّ طلبوا حمايته، كما يحمي هنري فرعون جماعته، فرحّب الاسعد بهم ترحيبا حارا، ووعدهم بالحماية من دون مقابل.

عندها قال القبضاي خضر الجوني: «يا بك يعني مش اذا اتصلنا يقولون لنا البك نايم... نحن لا نعرف متى تحصل معنا المشاكل...»

فقال الاسعد: «يمكنكم ان تقصدوني متى شئتم. ابوابي مشرّعة لكم حتى بعد منتصف الليل. في جميع الاوقات سأتفرّغ لكم متى طلبتموني...»

خرج القبضايات من لقاء الاسعد مسرورين، وبعد فترة قصيرة عاد فدعاهم الى لقائه، وكان رياض بك الصلح قد اوحى له بفكرة تأسيس الحزب، وفي اللقاء طرح احمد الاسعد الفكرة فلاقت تأييدا... وهكذا بوشر العمل بتأسيس حزب النهضة الذي نشأ وشهد اولى مراحل تكوينه على يد كبار قبضايات بيروت.

وعن مدى التصاقه الوجداني بشعبيته انه اوقف سيّارته ذات مرّة، وكان متوجها مع عائلته من بيروت الى الطيّبة، في إحدى قرى منطقة النبطيّة، في حرج صغير على مقربة من منزل الحاج موسى حسن الطفيلي، ليتناول «الصّفيحة»... وفيما تحلّق اولاد ابناء المحلّة حوله، قام واعطى كل واحد منهم قرصا مع قبلة على خدّه... وصل

...الخبر الى اهل القرية، فحضر منهم كثيرون ومعهم اللبن الطازج والماء
وجلسوا حول زعيمهم على مرجة هناك... وحين انتهى الاسعد من تناول طعامه، قال: الحمد لله على هذه النعمة
.«والحمد لله لأنه منّ عليّ بنعمة اكبر منها، وهي محبّة الناس لي
وعن عراقة نسبه التي شهد لها الملك سعود، انه «في العام 1951، زار ولي العهد السعودي الامير سعود بن عبد العزيز لبنان، ودعي الى وليمة غداء في مدرسة العاملية في رأس النّبع، حضرها رئيس الجمهورية بشاره الخوري ورئيس الوزراء رياض الصلح، ووزير الدفاع رشيد بيضون، ووزير الخارجية سليم تقلا، ورئيس مجلس النواب احمد الاسعد. وفي خلال المأدبة، راح الامير سعود، ولم يكن قد توّج بعد ملكا على السعودية، يتحدّث عن تاريخ الجزيرة العربية، وعن تاريخ المملكة، وفي معرض كلامه عن عائلته، قال الامير السعودي: «نحن شيوخ المملكة»... فقاطعه احمد بك قائلا: هل تتكرّم سموّكم وتعيد ما ذكرت». فتابع الامير يقول: «نحن شيوخ المملكة نعم، ولكن «...بعد ان غادر بنو وائل الجزيرة العربية واستوطنوا في لبنان
جوزف السكاف على لائحة الاسعد
وعن مدى قوّته الانتخابية وتجييره الاصوات لمن يشاء، انّه عندما اراد الشيخ بشاره الخوري رئيس الجمهورية اللبنانية الثانية ورئيس حزب الكتلة الدستورية ترشيح الزعيم الكاثوليكي البيروتي هنري فرعون، عن مقعد الكاثوليك في البقاع، وكان حظ فرعون في الفوز ضئيلا امام منافسه الزعيم البقاعي الزّحلي جوزف سكاف، اقترح احمد بك ترشيح السكاف عن مقعد كاثوليكي في الجنوب، فبذلك تخلو الساحة في البقاع امام فرعون، فيتأكد فوزه. وهكذا كان نجح هنري فرعون في البقاع، وايضا نجح ابن السكاف في «ليستة ال14» على رغم ان احدا في .«...الجنوب لم يكن يعرفه او يدين له بأي خدمات
رصيد «ابن الاسعد» محبة الناس
وفي نادرة اخرى عن ولاء ومحبة الناس له وخاصة الطبقات الشعبية انه «كان ماسحو الاحذية يحطون رحالهم قرب مبنى البرلمان «ليسترزقوا»، وذات يوم، ما ان توقفت سيارة الرئاسة الثانية امام المبنى، حتى تدافع «البويجيي» نحوها، وقد نزعوا عنهم قمصانهم، وراحوا يمسحون ويلمّعون السيارة بقمصانهم، امام انظار النواب الداخلين الى المجلس تعبيرا عن محبتهم وولائهم للرئيس. احد النواب يومها اخبر الاسعد عما رآه بقوله: «يا عطوفة الرئيس، .«الحق سيارتك من تفاني المحبين لك
خرج الرئيس من المجلس وبأسلوبه الشعبي المحبّب، قال لأولئك الذين يعبّرون عن تأييده بطريقتهم تلك: «لا يا .«...حبيبات روحي، هيك كثير... ما تعذبوا حالكم، يللا البسوا قمصانكم قبل ما تاخذوا برد
وعن الزعيم الوائلي الذي عاش وتوفي فقيرا، نقل عن المختار الذي عاصره، ويدعى عزّت محبوبة: «لم يكن احمد بك ثريا. كان فقيرا لا يملك المال. رحمه الله لقد مات وعليه ديون بقيمة 06 الف ليرة لبنانية. وخلال حياته كان يرسل بعض رجاله الى المناطق، ليستدينوا له المال. بعضهم كان يوافق ان يدين زعيمه، والبعض الآخر يتمنّع... وكان الدائنون يستردّون ديونهم وقت جني المحصول اضعافا، يذهبون الى البيدر، ويأخذون ما يريدونه من .«المحصول

اعداد: انطوان شعبان – 28

في خلال الحملات الانتخابية التي كان يقودها احـمد الاسـعد، رفع انصاره شعارات، كان لها صداها ودويها القوي، كما يقول معاصروه، في الاوساط الشعبية لمدى تطابقها مع ممارساته الفعلية على ارض الواقع، منـها: «لو اراد الزعيم الاسعد ان يفكّر باستثمار المشاريع التي حققها، لكان اليوم في مصاف اغنياء العالم. فليأخذ تجار المشاريع ومستثمروها درسا عن الزعيم الوائلي بالفضيلة والشمم». «مشاريع الزعيم الوائلي ترس في يد العامل الجنوبي يحميه من الفقر والبطالة». «احذروا احذروا زمرة جمعتهم المصيبة واعماهم حب الذات، فاتفقوا وهم غير متفقين وتآلفوا وهم غير متحابين... تحابب زائل واتفاق مؤقت على مصلحة الشعب». «ايها المواطن الحرّ: اذا كنت تبغي الحياة السعيدة، لا تغتر بطواويس المجـتمع، ولا تقترع الا لمن يؤدي لك حسابك على الوجه الكامل غير المنقوص، فالشعوب الابيّة تأبى ان تسير وراء قادة مائعين». «البـيوتات العريقة لا ولن تتأثر من فحيح الافاعي ونقيق الانهزاميين». «قلنا ولا نزال نقول: ان الزعامة لا تقوم على المادة ان لم ترتـبط هذه المادة بسمو الروح ويقترن القول بالعمل». «نحن في الجنوب احرار لا عبيد، نلتفّ حول زعيم واحد، لا خوفا من ناره ولا طـمعا في جنّته، ولكنا رأيناه اهلا للزعامة فزعّمناه، وامينا على حقوقنا فعززناه». «هناك بون شاسع بين رجال يعملون، وبين اشباه رجال يقلّدون الضفادع ولا يخجلون». «الجنوب لسيّد الجنوب، ومن العار ان يسلّم العامليون قيادتهم الى دخلاء عليهم وغرباء عنهم.«

{السيدة فاطمة كامل الاسعد{

في حياة احمد الاسعد السياسية والاجتماعية، والانسانية عموما وفي تاريخ الجنوب في تلك الحقبة، لعبت عقيلته السيدة فاطمة الاسعد دورا بارزا، ففي مقال تحت عنوان: «نساء خلف الحجاب»، نشرته مجلة حريات في عددها العاشر في شتاء 1998، كتبت رجاء حماده الخليل: «ولدت السيدة فاطمة الاسعد عام 8981 في قرية الطّيبة. والدها كامل بك الاسعد ... تلّقت علومها على يد شيخ القرية فأحبّت المطالعة وكتبت الشعر. توفي والدها عام 1924، فخلفه في الزعامة شقيقه عبداللطيف بك الاسعد. تزوجت السيدة فاطمة، بعد موت والدها ببضعة شهور ابن عمها احمد الاسعد الذي كان يصغرها بسبع سنين. اراد عبداللطيف بك ان يتصرّف بأملاكها واملاك شقيقتها فتصدّت له ومنعته. عاشت مع زوجها احمد الاسعد، الذي اصبح زعيم الجنوب بعد وفاة والده (1926)، سبعة وثلاثين عاما، رزقت خلالها بزينب وسعدى وكامل. وكانت السيدة فاطمة او «ام كامل» على درجة عالية من الايمان والروحانية، تستيقظ في الخامسة صباحا، تقرأ آيات من القرآن الكريم، ثم تجالس زوجها احمد بك فيتشاورا في الامور السياسية وامور المنطقة، بعدها تفتح مجلسها الى كل وافد او زائر الى دارة الطّيبة. كانت تقضي ساعات مجالسها على فراش بسيط، تستقبل السيدات على جميع طبقاتهن، الفلاحات والاقارب وصاحبات المقامات والساعيات الى خدمة او المستقربات من اجل مصلحة ما. اما الرجال فكانت تحادثهم وترى شؤونهم من وراء الستار او الحجاب الذي كان يفصل بينها وبيـنهم، وكان اقرب اصـدقائها المقرّبين اليـها الشـيخ محمد تقي صادق الذي كانت تستشيره في كل شاردة وواردة.«

واضافت حماده: «كانت السيدة لا تقدم على اي خطوة الا باستشارة سبحتها او بفتح القرآن.. ويذكر عن الست ام كامل ان رحلتها من الطيبة الى بيروت كانت تستغرق في السيارة قرابة الخمس ساعات، كانت في خلالها تتوقف في كل قرية، حيث كان يتولى احد المعاونين توزيع محارم الحرير الملفوفة وبداخلها مبالغ من المال، على عائلات فقيرة معيّنة، كانت الست قد احصتها في قائمة.«

وتتابع كاتبة المقال: «توفيت السيدة فاطمة عام 1978 في بيروت، ودفن جثمانها في سوريا قرب مقام السيدة زينب بنت الامام علي بن ابي طالب، بعد ان حمل نعشها اكثر من ثلاثين شيخا.«

وخلصت حماده الى القول في ختام سردها سيرة فاطمة الاسعد: «لا بدّ ان هذه السيدة تميّزت بذكائها الفطري الحاد وبروحانيتها. احبّت عائلتها ففرضت على افرادها الولاء والاخاء، فمن خالف كان له القصاص المبين. واعتمدت على حكمتها ودرايتها بحلّ مشاكل قومها، وشغفت بالسياسة، وهي ابنة البيت السياسي العريق، فتبوأ في حياتها احمد الاسعد ونجله كامل المراكز السياسية، فكانت تردّد: «مجد دار الطّيبة ليس في الحجار، انه مجد منسحب فوق الحجار.«

{استمرار الدور التاريخي{

وتابع الرئيس كامل الاسعد الدور السياسي التاريخي للعائلة، خلال حياة والده احمد الاسعد، وبعد وفاته.
لعب دورا سياسيا بارزا، اذ آلت اليه الزعامة بحسب ارث عاملي عريق معروف، وهو فاز نائبا عن لبنان الجنوبي لاول مرة، في انتخابات المجلس النيابي الرابع، في 13 آب 1953. واستمرّت ولاية المجلس حتى 7 ايار 1957.
وفي انتخابات المجلس النيابي الخامس في 30 حزيران 1957، فاز كامل الاسعد نائبا عن لبنان الجنوبي، وخسر والده احمد الاسعد امام منافسه رضا وحيد.
وفي انتخابات المجلس النيابي السادس في 18 تموز 1960، فاز احمد الاسعد عن دائرة بنت جبيل، وحلّ نجله

كامل مكانه اثر وفاته في العام 1961.
وفي انتخابات المجلس النيابي السابع في 8 ايار 1964 فاز الاسعد نائبا عن لبنان الجنوبي- مرجعيون، وانتخب رئيساً للمجلس النيابي، واستمرّت ولايته حتى تشرين اول 1964.
وفي انتخابات المجلس النيابي الثامن في 9 ايار 1968، فاز الاسعد نائبا عن لبنان الجنوبي- مرجعيون، وانتخب رئيسا للمجلس النيابي للمرة الثانية، واستمرّت ولايته حتى تشرين الاول 1968.
وفي انتخابات المجلس النيابي التاسع في ايار 1972، فاز كامل الاسعد نائبا عن دائرة مرجعيون، وانتخب للمرة الثالثة رئيسا للمجلس النيابي في تشرين الاول عام 1971، واستمرّت ولايته حتى 15تشرين الاول عام 1984.
وفي عهد الرئيس فؤاد شهاب شارك كامل الاسعد في السلطة التنفيذية، فعين وزيرا للتربية الوطنية والفنون الجميلة في 31 تشرين الاول من العام 1961، في حكومة رشيد كرامي التي استمرّت ولايتها حتى20 شباط 1964.
وفي عهد الرئيس شارل حلو عين الاسعد وزيرا للموارد المائية والكهربائية، ووزيرا للصحة العامة في 9 نيسان من العام 1966 في حكومة عبدالله اليافي، وقد استمرّت ولاية هذه الحكومة حتى 6 كانون الاول من العام نفسه.
في تلك الفترة عمل الاسعد على تنفيذ مشروع الريّ من نهر الليطاني، وبعدما تمكّن، كما هو معروف، ان ينتزع يومها قراراً من مجلس الوزراء بالموافقة على المشروع، اســتقالت الحــكومة في الــيوم التــالي لاتخــاذ القرار، واعتبر بعـــض المراقــبين آنذاك ان تلك الاستقالة كانت بمثابة المؤامرة على مشروع الليطاني.
ولعب الاسعد دورا بارزا في ايصال الرئيس شارل حلو الى سدّة الرئاسة في 24 ايلول 1964، اذ خرج يومها من «جلسة الاستئناس» مع الرئيس فؤاد شهاب، ليعلن: «انه لا يجوز تحميل اي شخص مسؤولية هو لا يريدها، وخاصة اذا كانت هذه المسؤولية على مستوى رئاسة الدولة.«
ولعب الاسعد ايضا دورا معروفا في ايصال الرئيس سليمان فرنجية الى سدّة الرئاسة في ايلول 1970. كما كان له في ايلول 1976 دورا رئيسيا في تأمين النصاب لانتخاب الرئيس الياس سركيس. هذه المواقف وما تلاها اوحت للبعض لأن يصفه بـ«صانع الرؤساء.«
تاريخ آل الاسعد، كما يقول المؤرخون، مرّ بفترات ركود سياسي وزعامي، تلتها فترات نهضة وانبعاث من جديد... ويضيفون: «ودائما كان التاريخ يعيد نفسه...«
مراجع الملف
-1-جبل عامل في التاريخ - تأليف الشيخ محمد تقي الفقيه.
-2- العقد المنضّد، تأليف شبيب بن علي بك الاسعد.
-3- ادهم خنجر (1895 - 1923) تأليف جهاد بنوت.
4- -اعيان الشيعة - الجزء الثالث والاربعون ، تأليف السيد محسن الامين.
5- -تاريخ جبل عامل - تأليف محمد جابر آل صفا.
6-صفحات من تاريخ جبل عامل في العهدين العثماني والفرنسي - تأليف نوال فيّاض.
7-ذكريات رضا التامر، دار النهار للنشر، بيروت، الطبعة الثانية تشرين الثاني 1997.
8- هكذا تكلم احمد الاسعد» ملف نشرته مجلة الشراع - من العدد 650تاريخ 17 تشرين الاول1994 حتى العدد 676 تاريخ 17 نيسان 1995.
9- البرلمان ، تأليف هنري ابو فاضل
10 - من محفوظات ووثائق وارشيف العائلة الاسعدية الخاص، ومقابلات مع عدد من ابنائها.
11- حقائق لبنانية - الرئيس بشارة الخوري.